خواطر من إيلياء

دار الجندي للنشر والتوزيع
القدس
00972542263454
info@aljundi.biz
www.aljundi.biz
*

محمد عميرة
"خواطر من إيلياء"
(خواطر)
*
الطبعة الأولى (2013)
جميع الحقوق محفوظة
*
المونتاج والإخراج الداخلي
الريشة

الصف الضوئي: منير موسى حامد
*

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، بأي شكل من الأشكال، بدون إذن خطي من الناشر.
All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without prior permission of the publisher.

خواطر

محمد عميرة

خواطر من إيلياء

دار الجندي للنشر والتوزيع

الإهداء

إلى القليل من الناس الذين يقرؤون
أهدي هذا الكتاب المتواضع،
وإلى كل من يحب الكتابة والشعر.

المقدمة

ما أجمل تلك اللحظات التي يخلو بها الإنسان مع قلمه وورقه ليعَبر عمّا يجيش في نفسه من مشاعر وأفكار وأحاسيس خارجاً من ضوضاء وصخب الحياة العصرية والتي تنهب أوقاتنا بالعمل وأجهزة التلفاز والحاسوب والألعاب وغيرها.

فعزيزة تلك اللحظات التي يستطيع الإنسان أن يعزل نفسه فيها عن الحياة ليرى الحياة بمنظور شفاف جميل يعيده إلى القرون الوسطى حيث كانت السيارة تتنفس وتأكل وكانت البركة والبراءة وهدوء البال والبساطة تضفي جمالاً طبيعياً على الناس.

أما اليوم فالناس غير الناس وزمن الطيبين رحل وحلّ مكانه زمن الأوغاد، لكن علينا أن ننتظر بفارغ الصبر زمناً جميلاً قادماً تعود الأمور فيه إلى نصابها.

محمد عميرة

لا تحتاري (القدس)

يا مستضيفة المختارِ

إني خيرتك فاختاري

ما بين المكثِ على شطآني

أو الغوص في عميق بحاري

ما بين السكنى في جذوري

أو الشدو فوق أغصاني

ما بين حياةٍ عشرها واقعٌ

وخيالها تسعة أعشار

يا شمساً في سماء أقماري

عنكِ أنا لستُ براحلٍ

أجهلُ دربَ الأسفارِ

إني خيرتكِ

لا تحتاري

النرجسة

ومن طينة الأرض ينبت الإنسان

كالنرجسة البيضاء

حاملا عبق الشمس للأحرار

يرتقي نحو السماء

يسمو نحو المعالي بعنفوان

جذوره في أرض الإسراء

وغاية زهرهِ رياضُ الجنان

إلى صديق

يا صديقي

هذا الشاي رفيقي

أُذيبُ فيه ملعقة من صبر

وملعقة من سهر

أبلُّ بهما ريقي

وأخطّ بقلمي على ورقي

نداءً مملاَ... واغوثاه

وعزاءً يعود لي صداه

لكن من يسمع دبيب نملةٍ في صحراهْ

لو شاء يا صديقي

في لمحةٍ سحق من عاداه

أيام الحصاد

ما أجملها من أيام! تذكرتها بجلاءٍ الآن؛ لأنني حصدت مع أقربائي عدّة أيام، فشعرتُ بالسعادة والانشراح.. ربما سببها حنينٌ لأيامٍ سعيدة دفينة في باطني منذ أمدٍ بعيد، ونبهتْ حزناً سبَبَهُ اشتياقي لعودة لحظةِ فرح.

ما أطيبَ رائحة الأرض، وما أجملَ التعبَ لأجلها، وما أجملَ أن تحصدَ ما غرستَ.. هي حقاً أيام سعادة وبساطة وبراءة.. حيث لا شيء يربطك في الدنيا أثناء موسم الحصاد سوى عالمِ الحصاد وتعبُهُ الجميل، وكأنك في عالم آخر.

كنا في الأيام الخوالي وقت الحصاد ونحن أطفال نذهب مع أهلنا للحصاد، ونسير مسافة طويلة، ونبقى منذ الصباح الباكر وحتى المساء حيث كنا نتسابق ونشُقُّ طرقاتٍ في المحصول سواءً كان قمحاً أو عدساً، ثم نعمل منها أكواماً صغيرة، ومن ثمّ نجمع هذه الأكوام كوماً أكبر لنضعها على القوادم، ثم نحملها على الدّواب ونعود بها بفرحٍ لنضعها على البيدر ثم نعود راكبين بفرح أكبر لإحضار نقلةٍ أخرى. بعد الانتهاء من جمع المحصول على البيدر تأتي مرحلة تقليب المحصول

بالشاعوب ليتعرض للشّمس ويجفّ، وبعد ذلك تتمّ عملية فصل البذور بعد أن تسير عليه الدّواب بشكل دائري، وننتظر يوماً تكون فيه الرياح لتتمّ عملية التذْرِية بالمذراة.

لقد طوت الأيام أهل الفلاحة والأرض وأيام البركة.. تلك الأيام أصبحت في كثير من المناطق مجرّد ذكريات بسبب البنيان الكثيف والعمل في المصانع والفنادق وركون النفس إلى الراحة وشراء الأشياء الجاهزة هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أصبح لدى الناس حصادٌ يوميٌّ من الأخبار، ونظراً لما يرونه في هذا الحصاد ممّا يسرّ ولا يسر- إن كان هناك ما يسرّ- فقد أصبح لديهم شبهُ إحباطٍ من أنْ يروا أملاً يتحقق في أيّ من الحصادين.

---

* القوادم: جمع قادم وهو آلة خشبية من دفّتين يوضع عليها المحصول ثم توضع على الدّابة.

* الشّاعوب: آلة من يد خشبية طويلة في رأسها خمس رؤوس حديدية لتقليب المحصول على البيدر ليتعرض للتهوية والشمس.

* المذراة: كالشّاعوب ولكنها من خشب كلها ورؤوسها عريضة وتستعمل لفصل البذور والتبن.

السفر إلى البعيد

غالباً ما تكون الأحزان والمآسي هي التي تدفعني للكتابة، والذي يُحزنني أكثر أنني مشتاق أن تكون السعادة هي التي تدفعني للكتابة.

حين أكتب حروفاً على أرض الواقع فإنها تتشتت في نواحي نفسي، وحين ألملمها أتيهُ في ترتيبها فلا تخرج اللّوحة التي أردتُ تصويرها كما أردت، ولا تسلني ما الذي شتتها؛ فحالة أمتنا شتت كل الأشياء في كل النواحي؛ لذا لما أكتب أنزع نفسي من ثياب جسدي هارباً، أو مسافراً لأبعد حافةٍ في الكون، فأرى أشياء لا يستطيع قلبي وصفها، وكلما ابتعدت شعرت بالوحدة، والهدوء، فالسعادة، ولما يكون ذلك يسبق قلمي فكري، لكني ما ألبث أن أتذكر أصدقائي، فأشتاق للعودة.

الخيال عالمٌ واسع يكاد يكون باتساع الكون؛ لكنّ الكون أعظم بكثير، وحينما أبحر فيه أحمل معي فكرة برَقتْ في خيالي، وأطير بها إلى عالم الخيال الفوقيّ، فأصقلها حروفاً على ورقة، ثمّ أعود إلى الأرض برفقة بسمة؛ لأوصل من بين الكلمات فكرة.

هذه المرّة حين سافرت إلى الهدوء بمركبتي الخيالية ذات السرعة الخيالية ألقتْ بي في الفراغ قريباً من سقفِ سماءِ الدنيا، ويقال إنها أبعد

نقطة سيصلها الإنس والجنّ معاً مهما أتوا من علمٍ وسلطان، وقد لمسها الجنّ من قبل.

والكون يزداد اتساعاً منذ خلقهُ الله، لكن مهما ازداد خيالنا اتساعاً فسيظلّ مكانه بسبب سعةِ الكون التي لا يتصوّرها عقل، وربما قرّبتْ لك السّنوات الضوئية فكرة اتساع الكون، والدّالة على الخالق الواحد العظيم.

لقد امتلأت حباً وإيماناً من هذه الرحلة الخياليّة، وتذكرت الآية التي تقول: {لخَلقُ السمواتِ والأرضِ أكبرُ من خلقِ الناسِ ولكنّ أكثر الناسِ لا يعلمونَ}، فانشرحتْ نفسي. فسبحان الخالق العظيم الذي لا ينبغي التسبيح إلا له.

الغراب يردّ على الحصار

ضبطت الغربانُ ساعتها على موعد رنين جرس الطلاب بعد دخولهم من الفسحة اليومية بعد الحصة الثالثة؛ لتأتِ وتلتقط فتافيت الخبز وبقايا طعامٍ تساقطت هنا وهناك في ساحة المدرسة، وبالرغم من اعتيادي على تأملها وهي تلتقط طعامها، واعتيادها على رؤيتي كما اعتادت على التوقيت إلا أن طبعها لم يتغير وهو الحذر الشديد.

لكن منظراً فاتني وودت لو أنّي شاهدته وهو يؤكد على طبعها الحذِر وصَفهُ لي زميل في العمل أنهُ رأى غراباً يقف على نصف رغيف من الخبز ويخرج بمنقاره قطعة من (المرتديلا)- وهي نوع من أنواع اللحوم المعلبة- ويضعها بجانبه، ثم يخرج قطعة أخرى بعد أن يرفع رجله عن قطعة الخبز ويضع قطعة اللحم بجانبه ويضع رجله على قطع اللحم حتى أخرج ثلاث قطع، ثم حملهنّ بمنقاره وطار بهن.

لما تأملتها في إحدى المرات تذكرت أنها علمت الإنسان الدّفن في غابر الأيام، وكما نحن البشر أمم كذلك باقي المخلوقات أممٌ أمثالنا ولها لغاتها وقوانينها؛ بل تدرك أشياء بفطرتها لا يدركها البشر بعقولهم، فكل شيء خلقه الله الحكيم له فيه حكمة وسرّ.

فإذا كانت الغربان عند المحاصرين قد شبعت عن الخبز؛ فماذا تأكل الغربان في بلاد بوش؟ وأي حصار فاشل هذا الذي ردّ عليه هذا الغراب؟

ترانيمُ السحر

رفرفت أجنحة فراشةُ الشوقِ حول فؤادي فنبهتهُ للكتابة، فرفرفت أصابعي تبحث عن قلمي لأطفئ شوقاً جميلاً بحبرٍ سماويّ، حيث نسيت نفسي على أرض الواقع فترةً وجيزةً من الزّمن بسبب تقلبِ الحوادث المنتظرة في الزّمن.

شدْوُ البلابل في الحديقة الجنوبية تحت هدوء كوكب الزّهرةِ والهلال يلقي بالنعاس وراءَ جدار الزّمن.

ثم ما لبثت تلك الأطيار كذلك حتى ختمت معزوفتها بترانيم السحرْ وغرس الأرض بالأزهار.

شايٌ في الجزيرة

حين فتح عينيهِ علم أن سبب يقظته مداعبةُ حرّ الشمس الباسمة له من خلال تسلل شعاعها إليه من بين أغصان الجزيرة الخضراء، وأنها أضحت شامخة وسط سمائها، وقد بدت له متخدّرة(*) خلف أوراق شجر الجزيرة الكثيف، كما الحسناء في خدْرِها الأزرق.

أوقد بعض أغصان أشجارٍ يابساتٍ وضعهنّ بين أحجارٍ ثلاثةٍ صغيرة ليغلي على ناره كوباً من الشاي ينبهُ أمله. بحث في جيوبه ومكان قيلولته عن قلمه، فلم يجدْهُ، ثمّ تبسم لما وجدهُ خلف أذنه ساعد على بقائه كثافة شعره، ولّما وجد أن حبره يوشك على النفاد، قال في نفسه: ربّما أستطيع عصر أوراق من هذه الجزيرة الخضراء وأكتب بحبرٍ أخضرَ. وحتى يغلي الشايَ كتب:

لم يعد المدخنون يهتمون بما يكتب من تحذيرٍ على علب التبْغِ، لكن ألا تبدو الأقلام كلفائف التبغ؟ وهل يا ترى يضعون يوماً تحذيراً رسمياً على الأقلام بأن الكتابة تضرّ بالصحةِ والحرية؟ وهل سنغرس يوماً أقلامنا في قلوبنا لتصبح دماؤنا أرجوانية؟

(*) متخدرة: من الخدْر- تخدّرت الشمس: أي غطاها وحجبها الغيم.

إجازة الصّيْف

ما زلتُ مولعاً في كل إجازة صيفٍ بعمل رزنامة لشطب الأيام القهوية اللون والطعم والرائحة...

ثم ما ألبثُ أن أتفاجأ بمرور أسبوع أو أكثر لم يشطبْ فأجرّ عليها قلمي جرّة واحدة ببسمة شامتة، وما منا من أحدٍ إلا ومرّتْ عليه أيامٌ بطيءٌ شعاعُ شمس نهارها.. ثقيلٌ شعاعُ نجوم ليلها.

في هذا الصيف الجميل أضفتُ لإجازتي إجازةً حتى من عمل الرزنامة الممتع، وكالعادة يتخللُ هدوء هذا الصيف الحار صوت الباعة المتجولون ينادون الأولاد بصوت جهوري: (توتيا.. نحاس.. ألمنيوم)، لشرائها منهم، فلكل فصلٍ عندنا تجارُهُ.. ربما لأن قضيتنا قد تاجر بها القريب والبعيد والتاجر وغير التاجر.

كما يتخلل صيفنا كل سنة حزمُ أمتعة المشتاقين لزيارة الأقرباء خارج جدراننا، واستقبالُ العائدين من دراسة أو عمل لتسْتقبلهم جدرانٌ كثيرة قبل استقبالنا لهم.

وبالرغم من مهرجانات الصيف الكثيرة وخاصة حفلات الأعراس والتي تقلق هدوء النجوم السّاهرة إلا أن رحيل الصيف يكاد يكون

أسرع من رحيل الربيع؛ لذا أحببت أن اجري اتصالاً هاتفياً مع الأمس في هذه الإجازة السريعة، وحين تحدثت مع الأمس بادرني بالسؤال المعتاد عني فأجبته: إنك أعرف مني بنفسي لأنني ما زلت أسمعك في نبضات قلبي وأحسّكَ تسري في شراييني، وكلما ابتعدتُ عنك رأيتك أكثر وضوحاً.

كانت على طرقات الأمس التي مررتُ بها زهورٌ ذات أوراق فضية، ولما تهتُ في طرقات المستقبل ومررتُ بنفس الطرقات، أو مرّتْ بي رأيتُ تلك الزهور أضحتْ أشواكاً، وما زالت تطوّقها الأوراق الفضية، ولما اقتربت من إحدى تلك الأوراق رأيتُ نفسي فيها؛ فإذا بي ما زلتُ كتلك الزهور التي كانت بالأمس.

يا صديقي...

استمر بالخربشات

عساها تحيي الموات

نحن في زمن الضياع

زمن التفتيت بل زمن الآهات

ليس لنا إلا ما تبقى من خربشات

نجرها على أجسادنا

أو على وريقات...

الجاذبية

أضأت في عتمة ليلي شمعةً فوق بنفسجية، فأنارت غرفة فؤادي، فملأتُ قلمي من حبر شراييني لأكتب لمن يعبرون في الكلمات فيأنسون بتعانق الأرواح في الأثير.

ولما يجيء الليل تجيء معه فرقته، فقمرهُ كالعادة يقود النجوم، فأحياناً يسبقها، وأحياناً تسبقهُ... ربما إشارة إلى قدَمِ الديمقراطية.

ولما رأى القمر دوران الأرض حول شمسها دار حولها، ودارا معاً حول الشمس، والشمس تدور حول المجرّة، والمجرّة تدور حول ما هو أكبر منها، فسبحان الله والله أكبر.

ذلك الدول الصغرى تدور حول الدول الكبيرة، وكل تلك الدول تدور حول النجم الذي اكتشف قبل حوالي مائتي عام والذي أطلقوا عليه اسم: أمريكا، ويقولون إن النجوم تأفل وتختفي؛ لكني أتساءل إذا ما اختفى النجم الأمريكي فحول من ستدور الدول الصغيرة، وخاصة الدول العربية، ربما يقول أحدنا:

سيدورون حول أنفسهم...!

والخلاصة أن الدوران سيستمر، وربما اقترب اليوم الذي تنتقل فيه الدول من دورانها حول البيت الأبيض الجديد إلى الدوران حول البيت العتيق... وهذا ما يحذرُ منه فرعون زماننا وجنوده.

نسيم ليل تموز

نسيم صيف تموز يداعب نافذة الغرفة الغربية باستحياءٍ وبطء، ولما أضأتُ شمعةً على رصيف تلك الليلة أحسستُ كأن تلك النسائم تعزّينا بمداعبتها الحزينة بخرق طبقة الأوزون.. كان ذلك في أول ساعة من أربعاء الخامس والعشرين من تموز حين التفتّ لتلك الستارة وهي تتمايل بعشقٍ وشوقٍ لذاك النسيم العليل؛ فغرت منها وداعبت أناملي أوراق كرّاستي باحثاً عن صفحة بيضاءَ أكتب عليها شيئاً ما... وتوقفت هنا ولم أكمل...

وعدت بعد أيام لأكمل الخاطرة...

إنما كتبت في هذا النسيم لأن حرّ هذا الصيف كان شديداً... ولم أكن أعلم أن حرّ الأحداث بعد كتابة السطور العلوية سيكون أشدّ حرارة.

كنا ننظر إلى الأفق بانتظار عودة الطيور المهاجرة كي ترفرف معنا؛ لكن يأبى محراث الأحزان إلا أن يعود إلى فؤادي ليشقّ نفس التلم للمرة الثالثة... فحين حطت الحمامة والطير على جسر الوصال كي يبحثوا في الرّيش بقي الطير خلف الشمس وعادت الحمامة منتحبة عليلة.

قال أحد المنتظرين كلاماً كالشمس: ربما بقي الطائر خلف الشمس لأنه يرنو إليها...

مسلسل الحياة

منذ سنينَ بعيدة وأنا أسمعُ أصواتاً من وراء الأثير في مهرجان الربيع تحملها نسائم آذار تناديني كالعادة عند تفتح الأزهار بأن ابتعدَ عن الأطلال، فيرتدّ صدى تلك الأصوات لما بين زرقة السماء وخضرة الأرض أن الأطلال أصبحت موطني، وتقطنني.

وبين هذين اللونين تروحُ وتجيء روحي على أرجوحة الأمل تشدو أنشودة شمس الغد على لحنِ الحدث.

ومهما طالت الأنشودة فلن يشعر أحدٌ بالملل نظرا لتجدّد الحدث واختلاف اللحن.

فهذه الحياة مسلسلٌ طويلٌ في حلقاتٍ يومية أول أيامه حين هبط آدم عليه السلام على الأرض وآخر أيام المسلسل يوم القيامة، فسبحان من يعلم ما مضى من حلقات وما سيأتي منها؛ فعدد حلقات هذا المسلسل هو عدد أيام الحياة الدنيا.

فالحياة قصيرة جداً لأننا شاهدنا من شريط أيامها الطويل- والذي لا يعلم مداه إلا الله تعالى- جزءاً يسيراً جداً... إذاً فلنتذكر ماذا قدّمنا لغد.

جزيرة الشمس

أيها الليلُ الساحرْ
اضرب بعصاكَ السحريةْ
على الثريا لتقفْ
كيْ أرسمَ نملةً و نخلةً أو مَجَرّةْ
لا فرقَ في عظمِ الرّسْمِ لما أصفْ.
اضرب بعصاكَ السحريةْ
على لحظةِ سعدٍ فرْدَوْسيةْ
أعانقُ الشوقَ فيها، ألومهُ ثمّ نأتلفْ.
اضرب بعصاكَ السحريةْ
على لحظةِ صمتٍ مطلقْ
أُبحرُ فيها في محرابِ أرواحٍ لا تختلفْ
ثمّ معاً، إلى جزيرةِ الشمسِ ننطلقْ.

رمضان...

كل عامٍ لمجيئكْ

نتلهفْ

ليت هلالك الأبيضْ

يتوقفْ

لعلّ الله بنظرة إلينا يتلطفْ

ويعيدُ لنا مجداً تخلف

الضيفُ الكريم

لما كنت جالساً في صالون زوج شقيقتي وفي الزّاوية الأدبية منه، طرقتْ مسامعي نقراتٌ لطيفاتٌ على زجاج النافذة، كدتُ أحسبها نقراتُ طفل؛ فإذا هو الشتاء الجميلُ يسكبُ دموعَ السماء التي ارتوتها من أرضنا، وحزننا، وصبرنا، وقهرنا، وانتظارنا...

أزحتُ الستارة، وفتحتُ النافذة بلطفٍ؛ فلا أعرفُ ما النسيم الذي رفرف على ستارة قلبي، أهو نسيم دموع السماء المواسية، أم نسيم البهجة السنوية بهذا الضيف الكريم، والكثير البكاء.

ابتلتْ ستارةُ النافذتين من تلك الدموع الرقراقة فتعانقتا بحرارة، وابتسمتا بمرارة، وبعد تزاوج المشاعر بين المادة والروح طارت روحي شوقاً إلى ما وراء حديد النافذة الصلب، وحطتْ على شجرةٍ منعزلةٍ وسطَ هدوء سحر الليل، والتي عزفتْ على أوراقها جوقة قطرات السماء؛ فأضفى جمالُ اللحن جمالاً على روحي، كما أضفى عزْفُ القطرات على أوتار الليل السوداء الهادئة لحناً أضاء الليل فغنّى.

ولما أسْنَدْتُ وحدتي إلى جذع هذه الشجرة بدا لي الشتاءُ مشمراً عن ساعديه وكأنه يوحي إلي أنّ عليه عبئاً كبيراً هذه السنة من تطهيرٍ للأرض وأهلها... استعداداً لعيدٍ كبير.

(الأربعاء 17/ 10/ 2007 – عمان)

بطاقة معايدة إلى سامي

كتب قلمي بالدم

كتب قلبي بنار الغيرة

كتبت عيني بالدمع

كتبت روحي بالريح

لتوقظ عربا ناموا

لمن هو خلف الشمس في غياهب غوانتنامو

يا سامي السامي بصبره وألمه ووحدته بين ملايين الملاليم

إنهم لا يسجنونك وحدك

إنهم يسجنون ويذلون بك أمة المليار ونصف

إنهم يسجنون ويذلون كل من أحبك وطالب بحقك، والحقيقة إنهم يقرعون خلف الكواليس كؤوس نخب الشماتة والاستخفاف بنا

إنهم حين يرسلون ببعضهم أمام آلات التصوير ليدافعوا عنك.. إنما ذلك للتسلية بنا ليس إلا.

وصلت بهم الوقاحة إلى ما وصل بنا العجز والقباحة.

إلى هذا الحدّ وصلت حالتنا من الهوان، حيث لا نستطيع إخراج

رجل واحد من كهف الظلم ليحيى تحت الشمس!

وكل عام ونحن تحت الشمس

(الخميس 5/ 10/ 2007)

عيدٌ جميل

مهما نعاني من آلام الأمة العريضة والعريقة من خنقٍ وأذى وضرّ وأسى؛ فإننا حتى وفي أسوأ حالنا ما زلنا أفضل الأمم وعلى علاتنا، وذلك لأن المستقبل لهذا الدين، ولأن الإسلام أكبر نعمةٍ؛ فالحمد لله على نعمة الإسلام.

وما زال ولن يزال لعيدنا بهجة، فهما عيدان فقط، ولا تأتي أعيادنا إلا بعد عبادة، فعيد الفطر بعد رمضان، وعيد الأضحى بعد الحجّ ويوم عرفة.

لذا فرحتنا لها بهجة ونكهة وسعادة. وبالرغم من تكالب الأمم علينا، فما زلنا متمسكين بفضل الله بديننا علماً بأن الإيمان يزيد وينقص، مما يزيد في حقد وحسد الآخرين والذين أصبحت حياتهم جحيماً ببعدهم عن الحق. لذا فالمنصف منهم رأى طريق الحق فاتبعهُ.

فهل الرجل المسلم الذي يروح ويجيء إلى المسجد منشرح النفس والعقل كالرجل الذي يروح ويجيء من وإلى علب الليل محطم النفس بلا عقل. وهل المرأة المسلمة المحجبة العفيفة المصونة كالمرأة الملقاة على شوارع حضارتهم تبيع نفسها بثمن بخس.

وهل الطفل المسلم الذي يدرس القرآن وأحكام التجويد كالطفل الغربي الذي لا يعرف سوى اللهو والدلال والرحلات.

وهل المجتمع المتراحم والأسرة المتماسكة كالمجتمع التائه والأسرة المفككة... وهل وهل...؟

تقبل الله منا الطاعات...

وكل عام ونحن بخير

خاطرة من بقايا ذكريات

لا أعرف كم مضى من زمنٍ على مروري برصيف شارع الزهراء وبالقرب من صالة عرض سينما القدس والتي أغلقتها انتفاضة أطفال.

لما مررت بتلك المنطقة في تلك الفترة كانت تجلس على الرصيف امرأة تفتح بالمندل لظنها أنها تفتح به باباً حلالاً من الرزق.

نادتني: تعال اقترب أحلّ لك عقدة جبينك.

لم أعبأ بها وبما تعمل بقدر ما لفت نظري الذي لفت نظرها لي ونادتني من أجله.

كنتُ أسير وحيداً سارحاً، ونظرت في الزجاج... حقاً إنني مقطب الجبين.

لكنني بعد سنوات حين تذكرتُ ما ذكرتُ تساءلتُ متفلسفاً إن كانت "المرأة" تستطيع تغيير أمة.

ليلة القدر

ثمة أزمنة أحبّ أن تتوقف حقاً، منها زمن ليلة القدر هذه، فكأنها إحدى مهرجانات جمعِ الجنة... فكأني لما أدخل إليها عبر الأقصى المبارك كأنما أدخل بحار الأنوار، ولما أخرج كأني أخرج من تلك البحار ولا يزال أثر ماء الأنوار على جسدي وروحي فترة من الزمن...

عاد رفاقي إلى القرية، وبقيت عازماً العودة بعد رؤية شمس ضحى هذه الليلة بسبب أنني أرى الزمن يسير بسرعةٍ أكثر من غيري.

غفوت مرتين بسبب سلطان النوم في كل مرة أقل من ساعة ولا أحب ذلك بسبب تجديد الوضوء.

يكثر الباعة في هذه الليلة ولا يهمني منهم سوى باعة الشايّ بالنعناع حيث اشتريته أكثر من مرة. ولما كنت أحتسيه وأرقبُ الليلة ندمت لأنني لم أصطحب آلة تصوير صاحبي لتصوير أشياء لم يصورها المصورون، هذه الليلة هي صورة طبق الأصل عن ليلة القدر الماضية والتي كتبت فيها خاطرة بعنوان (لقطة أقصاوية)، لذا أخرجت تلك اللقطة لتطفو على السطح لنتأمل قرب المسافة بين الزمنين أو الليلتين.

(27/ رمضان/ 1428)

عمّان

ما زال شارع حي نزّال على ما كان عليه قبل أكثر من عشرين عاماً حين كنت أتوجّه صباحاً إلى الكلية العربية، لكنّ الياسمينة التي كانت تستقبلني على مفترق بعض طرقاته قد اختفت وأصبح مكانها كرمة عنب... كما استبدلت بعض الأمكنة أصحابها من مطاعم وبقالات وحتى أسواق، والبقالة التي كانت لجدّي أصبحت لجدّ رجل آخر... والأطفال أبناء السبع سنين أصبح لهم أطفالاً، والبنفسجة المعشوقة ابنة الخمسة عشر ربيعاً أصبحت فروعها معشوقات.

إلا أن مطعم أبي تيسير الشعبي لبيع الفلافل والحمص ظلّ كما كان، أضفى صموده على حاله أنساً على نفسي لأنني مثله على حالي بالرغم من مرور تلك السنين، والمعاناة على الجسر كما هي أضفت أنساً من نوع آخر، إلا أنني اعتبرتها ضريبة مستحقة للقاء الأهل والأحبة.

حنينٌ من الماضي يناديني بين الفينة والأخرى أطفئُهُ بزيارة خاطفة لمدينة عمان والتي كانت فيلادلفيا، وكما كانت القدس إيلياء، فأعود حاملاً في قلبي سلاماً وشوقاً من شرقيّ النهر إلى غربيه، وهذا النهر

العريق حين أكون فوقه على الجسر؛ جسر الوصال... أشعر بمزيج من الفخر والقهر، الفخر لعبوره والقهر لظروفه، يجللُ ذلك رداء الصبر.

راودتني كلماتٌ من الماضي:

(بارك يا مجدُ منازلها والأحبابا *** وازرع بالورد منازلها باباً باباً)

أعشقُ زمن تلك الكلمات والتي كانت تسبق نشرة أخبار الثامنة، والتي ما زال يفوح من ذكرياتها رائحة كرائحة نبتة اللافندرا السحرية.

---

* أطلق عليها اسم عمون حيث سكنها العمونيون وهم من القبائل العربية التي هاجرت إليها وأطلقوا عليها اسم (ربة عمون) أي عاصمة العمونيين، وكان ذلك الأمر منذ آلاف السنين، وبعد ذلك احتلها القائد الروماني الإسكندر المقدوني وتمّ تغيير اسمها إلى مدينة فيلادلفيا، وذلك نسبة إلى الإمبراطور فيلادلفوس الثاني، واستمر هذا الاسم حتى العصر الجاهلي قبيل الإسلام، حيث عاد الاسم القديم لها مع بعض التعديل من عمون إلى عمان.

ضبابُ الخريف

أطفأ الرجلُ الضبابيّ سيجارتهُ في حجرٍ مجوّف؛ فكانت بقاياها كجثةٍ ملتوية... ثمّ تصاعد دخانٌ لولبيّ بلا شكل ثابت يحاول الصعود نحو قطعٍ من ضبابٍ ثناثرنَ في سماءٍ زرقاءَ وكأنما يبحثن في السماء عن كفٍّ تشير...

كان على هذا الحال في بداية التسعينيات حين هجمت ذات القرون على عاصمة المجد والعزّ، وكان الناس حينذٍ ينبشون في أوراق التراث الخضراءَ عن خروج رجل من الشّرق حاملاً لواء استرداد ذلك العزّ من الغرب...

ثمّ تساءل: ألم تنقض كل العلامات الصغرى، والفتن أحاطت بالناس من كل جانب كإحاطة الجدُر؛ فقطعت أوصالهم، كما قطعت أوصال الأرض السليبة، وجعلت الناس جثثاً بلا أفئدة.

قام ببطءٍ من تحت الزّيتونة التي وارته من شمس مؤتمر خريفٍ طويل بطول قرن... قرنِ تنينٍ غاصب. ثمّ سرَحَ في شعوبٍ منسية كبقايا قصائدنا المعلقة؛ بل في شعوبٍ ممزّقة كقطع الضباب المتناثرة في زُرقةِ السماء المتسعة في خريف أيامنا.

لكن... ليت شعوبنا كالضباب تتحدُ وتملأ الأرضَ ماءاً وبركة وخيراً لتحيا وتحيي الأمم.

ثمّ عاد إلى حيث لا يعلم ليكملَ ما تبقى من زمن الانتظار... انتظار موسم حجّ آخر.

العزفُ لوْحة الغروب

غنتْ لوحةُ الغروب وحدَها... لكنْ لما رأيتها عن بعدٍ، وبعين الوجدِ... توسطَ قلبي حاثاً فكري، فأسرع قلمي بخفة الفراشةِ إلى أناملي ليعزِفَ لها، فكانت اللوحةُ بفستانها الورديّ المائل للحمرةِ تغازلُ حتى القلوبَ الممزّقة، وتغازل عصافير النهار المتناثرة في الشتات، والباحثة عن أعشاشها بعد طول زقزقة، وبلا جدوى؛ لتبيت في أعشاش الزمن المرقمة.

ويقلقُ مبيتَ قلوبنا سهمُ القلقِ يشدّهُ وترُ الأرق.

سكبَ الليلُ ببطءٍ حثيثٍ حبرَهُ الحالك على اللوحةِ شيئاً فشيئاً، ثم ما لبث أنْ قدّمَ نجوماً وقمراً كعزاء... طامعاً بمشاركتنا بفنجانِ قهوةٍ كلونهِ وتمرةٍ كطعمهِ.

ولما يمسي الليل فينا، أو نمسي في واديه نفتحُ خزّانة الصبر، ونخزّنُ فيها كأس الرجاء الممزوجة بالخوفِ يحليها ملعقةٌ من تفاؤلٍ بغدٍ لا تدْركُ حواسنا نعيمهُ.

من خواطر الأربعاء

(2007/11/7)

إلى شقيقتي

أفاطمَ لا نريدُ هجراً ولا قلقْ *** حذارِ لعودةٍ لما كان قد سبقْ

وعيناكِ لا يغفلنَ عن طالبٍ هجرْ *** وكان على جسر المحبة قد علقْ

سقانا بما جرى كؤوساً مريرة *** تغصُّ حلوقنا فمن ذاقها شرِقْ

وحثي أُخيتي على العلمِ حافظاً *** لذكرٍ من الباري أتاهُ على طبق

فصلّ إلهنا على من جماله *** كشمسٍ تخدّرت على لوحةِ الشفقْ

أيّها الغريق

أيها الغريق
أتبحثُ عن خريطة الطريقْ
لسنا بحاجة لخريطة ترينا الطريقْ
فالسّرُ في رؤية محراب العتمة يا رفيقْ
أترنو لمؤتمرات خريفٍ وصيفْ
رحم الله أيام الخيل والليل والسيفْ

أيها الغريق
نحنُ من دول كثيرة الأبطال
لكنْ، أبطالاً من ورقٍ رقيقْ
وهمهم تسريح شعرٍ وكيّ بنطالْ
نراهم في تمثيلٍ للزّمنِ العريقْ

أيها التائهُ الغريق
أتبحثُ عمن تناديكَ: يا عشيقْ

فلا العشقُ ولا الشعرُ والخطبةُ تنجيكْ

اضربْ برجلكَ كلَّ القممْ

واحمل راية سعدٍ

نسمو على كلّ الأممْ

حاول أن تبتسم

تردّدتُ حين فتحتُ نافذة الخيال لأشمّ رائحة ياسمينة الجمال، فما كان لها رائحة، بعدما كانت رائحتها تعبق في الآفاق، فيا لهفة ما بعد النزاع والفراق يا رفاق... شعبٌ محاطٌ بجدرٍ تساندُ جدُراً... هي جدرٌ من إسمنت، وجدرٌ من غدر، وجدرٌ مطاطة من وعود برّاقة، وجدر من كراهية وفرقة مما يزيد في بؤس وشقاء الأمة، وبالرغم من ذلك تزداد درجة العصر والحصر لهذا الشعب الذي يعيش على شاطئ النسيان تلطمهُ أمواج الحدث كلما هبت ريح المصالح، وليس لذنبٍ إلا أنه يريد العيش بكرامة كباقي الأمم، فللنملِ وطن، وللطير وطن، وللورد وطن.

وبما أننا في موسم عصر الزّيتون المبارك، فقد ازدادت درجة عصرنا برفع سعر زيته تقريبا للضعف عن العام السّابق، فهل ظنوا أن للزيتون علاقة بالإرهاب لأن اسمهُ وَرَدَ في البيان؟ وارتفعت أسعار الخبز كذلك ربما لأننا نغمسهُ بالزّيت، حتى ارتوت عيوننا منه، وبما أن للغاز علاقة فقد ارتفعت أسعاره للضعف.

هذا وبالرغم من عصر الرواتب المعلقة والخصم منها تحت مسمياتٍ شتى والتي هي رواتب شحيحة أصلاً دون خصم.

وبعد هذا العصر إن شئتم احملونا وعلقونا على حبالٍ واقرؤونا كخاطرة معلقة ومعقدة.

أوَتظلمنا أوطاننا أم نظلمها حين شوّهنا معالم خريطتها العريضة الخضراءَ بريشة وهنٍ حمقاء سوداء ؟

أوَنحفر مغاور تحت الثرى لأننا نرنو للثريا؟ أوَنسكن القبور ربما فيها طعم الحياة؟ أننتظرُ موسم أسراب الطيور المهاجرة فنتعلق بأرجلها لتلقينا في أي أرض ليس فيها ظلم أو تناحر وكلّ الأرض ملأى به؟ إلى أين المسير؟ حتى الهروب بشياهٍ إلى أطراف الجبال تحت الشمس عزيز المنال للنجاة من فتنٍ متتابعة يحارُ فيها الخيال.

ففي زمن نحن فيه على هذا الحال ليس لنا إلا الدّعاء لربّ الأرض والسماء أن يكشف الضر والبلاء ويغير الحال، والحمد لله على كل حال؛ فبالحمد قلوبنا تبتسم، وجراحنا ولو قليلاً تلتئم.

صوّرتُ نفسي بنفسي
عبر مرآة أُنسي
حاولتُ أن يبدو سني
ببسمة من وميض أمسي

(أرسلت السبت 14/ 11/ 2007 لمنتدى الجزيرة توك)

شاطئُ الحياة

مررتُ بشاطئ الحياة ذات ربيع... بعدما اشتقت إلى أرض الواقع، وقد كنت جالساً على فرْشَةِ خيالي، وهي من عشبٍ أخضرَ في إحدى زوايا الحياة الخالية... حملتُ "ريموتَ" ذاكرتي وضغطتُّ على رجوع... فرأيت أنني قد وضعتُ نفسي في علبةٍ وأغلقتُ عليها بمفتاح من ذهب، ولا أعرف أين ذهب، وبعد بدءِ بدْر ربيع آذار فتحتُ مساحة من نافذة الحنين، فحلقتْ منه بخفةِ فراشةِ الذاكرة، فأحيت الشوقَ الدفين.

ما فتحتُ تلك النافذة إلا بعدما رأيت بعينٍ أبعدَ تلك السنين وما حَوَتْ.

وشرعتُ أكتب، وإني أعلم أن كلّ كتاباتنا كمن يكتبُ بخشبةٍ مكسورةٍ على صحرائنا الواسعة...

ما تلبثُ كتاباتنا أن تلاشيها الأرياحُ أو قطعانُ ذئابٍ عابرة... أو كأفراحنا فقاعاتٌ ملونةٌ من رغوة أيامنا ما أسرعهُ تلاشيها... كفراشةٍ عبرتْ خريفَ بستاننا لم تستمتع لبيتِ شعرٍ نقولهُ فيها...

فمنذ الزّمن الرّغاليّ والذي فتحَ فيه باباً لم يكن عند العرب وهو باب الغدر، وزمن الدّجال الذي نحن فيه ما زال البعض يخشى الكتابة حتى

ولو كانت على الرّمال حتى لو كانت في وصف أمير أوعتال أو حاوية أو دجال أو شروق شمس أو غروبها، هو داء الأنانية وداء الأمم، فلمّا أرى أن هذه الأدواء ما زالت قابعة أحوْقلُ وألوي لجامَ الخيل عائداً إلى زاويتي الخالية في الحياة الخالية.

خريطةُ الطريق المعلقة

قفا نبكِ خلفَ شمسنا ورمالنا *** على رسمِ أطلالٍ هوانَ رجالنا
ولا نبكِ محبوباً تجنى وإنما *** ضياعَ بلادنا وضعفَ خيولنا
خليليَّ ما توفيتْ شمسُ ريحنا *** فما بَرِحَتْ تنامُ في عمقِ ليلِنا
ولكنهُ ليلٌ ظلومٌ ظلامهُ *** ولو أرسلَ النجومَ ترثي لحالنا
عميقٌ ورحبٌ بحرُنا طالَ نومهُ *** فلم يلقِ بالاً للعراقِ ونيلنا
رثتنا نجومٌ في السماءِ بنورها *** بكتْ أزهرُ الرّبيعِ قتلَ عيالنا
وما طلّ فجرُ العيدِ يوماً بنورهِ *** وسرَّ برؤْيانا لحالكِ حالنا
فكم أنجمٌ(*) أهدتْ إلينا ضياءَها *** ترينا خريطةً لِدرْبِ رسولِنا
فما برِحتْ دوْماً وراءَ ظهورنا *** فضِعْنا وضَيعْنا وتهنا بجهلِنا
وتلكَ كواكبي تطوفُ قصيدةً *** لبحْثٍ حثيثٍ عن مجيدِ فعالِنا
فصلّ إلهنا على من ضياؤُهُ *** كشمسٍ تزينتْ فوَيقَ رحالنا

* الأنجم: هنا أقصد بها علماءُ الآخرة وليس الدنيا، فهم أحقّ بالنجومية من الفنانين وغيرهم.

نافذة على الحديقة

حين يقترب من شاطئ بحر الفلسفة يغريهِ بركوبه فيفعل، ويشير لظلهِ بمجداف الذّكرى كيما ينتبهَ فيستمعَ، فهو أكثر من يفهمه، وهو معه طيلة النهار، وحتى في الليل على ضوء مصباح... على ضوء شمعة... على ضوء نار المدفأة التي وقودها تعبٌ وحطبٌ وحبٌّ.

قال: مرّ على مرورك بحديقة الزهور الملوّنة أكثر من عقدين، وقد لبثتَ في تلك الحديقة شهوراً قليلة، فما بالها ما برحتْ تلك الروائح الزكيّة عالقةً في ذهنك طوال تلك السنين.

قلت: بربك من ألقى نظرة من نافذة كوخ الأحلام على الجنةِ ورآها وشمّ ريحانها كيف ينساها؟ وتقول لي أنها سنينَ بعيدة وأراها كأنها البارحة ما زالت فيّ بارحة!

قال: لكنّ الأيام ولدَتْ لكَ حدَثاً وراء حدثٍ وسيارة الزمن ذات الدفع الرباعي ابتعدتْ كثيراً عن تلك الحديقة!

قلت: أجل، وهذا ما يحيرني إذ يراها الناس ابتعدت وأراها توقفت في مرآب الحديقة، ربما يشبه هذا القطار النسْبيّ!

ثم نظرنا للقمر وقلنا معاً: عجباً... إنهما زمنين في زمنٍ واحد، فسبحان الله الواحد.

الثقوبُ السوداء

يا صديقي لا تلمْني *** واسألِ الجدْرانَ عني
ليس هذا اللومُ عيباً *** بعضُ هذا اللوم يضْني
قال قلبي: طالَ شوقي *** بعضُ هذا الشوق يُفْني
إنْ تجافَينا سنيناً *** سلْ عرَيباً لا تسَلني
سلْ رجالاً كالرّمالِ *** خاب فيهم حُسْنُ ظنّي
إنني لمّا أتيْتكْ *** عدتُ والأحزانُ لحني
لسْتُ أنْظرْ في بريدكْ *** غيرَ ما ترويهِ عيني
كلّما حاولتَ وصلاً *** صدّكَ الفرْعوْنُ عنّي
مقدسيٌّ يا بلادي *** من يغنّي اللحْنَ عنّي
إنّني في الظلِّ طيفٌ *** حارَ في فنِّ التّمني
هامَ فكري في سمائي *** في الثقوب السّودِ عيْني
ربّما نجمُ المساءِ *** يهْدِ إنسِياً وجنّي
ليتني في الكهفِ نبعٌ *** تنهلُ الأسرارُ مني

(الأربعاء 2/ 1/ 2008)

قلبي وصمت العرب

قال القلبُ اعزفْ لي نغمي *** في عُرْبٍ ليسوا كالأمَمِ
ثار الفكرُ المسكين على *** عُرْبٍ كثرٍ شِبْهَ الغنمِ
ذُبحَتْ غَزّةْ.. طرِبوا.. رقصوا *** منحوا سيفاً لابنِ العَجَمِ
من تهجو منهمْ من؟ يَمني *** بحْرانيْ؟ أمْ ترثي شَأَمي؟
أممٌ غَرِقَتْ في شهوتِها *** يا لهفي من صمت الرِّمَمِ
صرخوا.. أعصابَهُمو تلِفتْ *** هدفٌ هدفٌ.. كرَةَ القدَمِ
يُلْهونَ شعوباً قد قهرَتْ *** جُعلتْ دوماً تحت الخِيَمِ
سلبوا كرْسِيّاً ما انتخِبوا *** عَجبَاً عَجباً.. خيرَ الأممِ
يا قلبي لا تسألْ أبدَاً *** لا تسألْني... لا، عنْ غنمِ
يا قلبي ما لكَ والفرَحا *** لحنْ دوماً حزْنَ النغم
فعسى صمتٌ طالتْ حِقبُهْ *** ناراً يخفي خلفَ الألمِ

قصيدة قديمة لي لم تكن موزونة.. عُدّلتها شعرياً وسياسياً
على بحر المتدارك المخبون في (19/ 1/ 2008)

مرحبا بالرباط وأهلها

يا جميلاً كالهلالِ *** مرحباً يا ابن القلالي
لا تَلمني في عِتابي *** يا كريماً في الخصالِ
غزّتي نادتْ عليكم *** يا شُعوبا لا تبالي
يا رباطَ الخيرِ جودي *** لو قليلاً من مقالِ
سدّدَ المولى خطاكمْ *** للثرَيا والمَعالي

الكتابةُ بالشموع

صمتَ الليلُ وسكتْ...

بعد طول عناءٍ من مرّ الأنباء...

وكان موجزُ النشرةِ شاعرياً:

شقيقتانِ تبكيانِ... طفلةٌ وشمعةْ

طفلةٌ تلقي شعراً في ظلمَةْ

فسالتْ من عينها دمعةْ

لتنيرَ الدّربَ للأمةْ

كدَمعِ شمعةٍ مشتعلةْ

تسيلُ... فتحترقُ الشمعةْ

لتغتالَ الظلمةْ

سكنَ الليلُ وانتهتِ النشرَةْ

وكما ترَبتُ الأمّ على كتف ولدها لينام، فإنّ سكون الليل هذا يربتُ تربيتاً لطيفاً على روح أحمد لِينام بسكينةٍ... فنام .

صحا أحمدُ من نومه كالعادة متأخراً تأخراً يؤخر الأمة ولو دقيقة- راجياً العفوَ ممن يعلم السّر والحقيقة- متململاً بعض الشيء من كسَله،

فحين يصحو مبكراً، ويصلي الفجرَ حاضراً، يبتسمُ ابتسامةَ النصر على نفسه. نظر من نافذة بيته المقوّسةُ والمشرفةُ على مشرقِ الشمسِ، والتي أوصى البناءَ بتقويسها ليشمّ فيها رائحةَ حضارةٍ راقيةٍ، والتي ما زالت نحو التشافي والمعالي تسعى حثيثاً، ارتشف من كأسه رشفةً من الشاي سبقتْ رائحةُ النعناعِ إلى أنفهِ الشاي إلى فمهِ ونظر إلى الشمسِ الآخذة في الصّعودِ وتنهدَ تنهيدةً أثارت فضولَ الشمس.

قالت الشمس: صباحُ الخير والوردِ يا أحمد، في هذا الصّبحِ المشرقِ على الوَرَى... علامَ التنهيدُ يا ترى ؟

أجاب أحمد: إني حائرٌ في حكيمٍ في الأمس البعيد.

وما قصته؟ سألتِ الشمسُ البهيةُ الجميلة.

قال أحمد: قرأتُ مرّةً أنّ أحدَ الحكماءِ حمل فانوساً وصار يجوبُ به في الطرقات نهاراً فقبض عليه جندُ فرعونَ وعلقوهُ على المشنقة... واليومَ عشراتُ الألوفِ يحملون الفوانيسَ ليلاً ونهاراً، وبالرّغم من ذلك هم أنفسُهم يرتطمون ببعضهم ويحوزون من فراعنتهم على الأوسمة. أليس هذا أمراً محيراً؟

قالت الشمس باسمةً وقد أبعدَتْ عن عيونها شعرَها الذّهبيّ برشاقة: أتذكرُ ذلك الحكيم وقلتُ: لعله يسخرُ منّي وضيائي، ولكني فهمت قصده فيما بعد.

إنكَ على حقٍّ يا أحمد.. إن الأمورَ التي تجري في هذا الزمان يصعب فهمها ومما يحيرُني أنني أمامكم وفوقكم وعن يمينكم وعن شمالكم لكنكم تأبون إلا أن تجعلوني ورائكم.

قال أحمد: أيتها الشمس إنني أشعر بالتقصير، فكل عمل صالح ولو كان صغيراً فهو خطوة نحوكِ ولو قراءةُ سطرٍ واحدٍ في كتاب الحرية. وإنْ كنتِ تتعجبين فإنني أتعجبُ مثلك من ظلامٍ أضاء.

وكيف ذلك يا أحمد؟ سألت الشمسُ متعجبةً.

قال أحمد: إنّ ظلاماً في غزّةَ أضاءَ دُوَلاً مترامية الأطراف حتى بَرِقَ في مكةَ.

قالت الشمسُ: صدقتَ، اذهب الآن إلى عملك ولن أقول لك متى نحتسي الشايَ معاً.

صمت أحمد وابتسم وحمل المرآة والمشط قبالةَ الشمس وسرّحَ شعرَهُ وانطلقَ إلى عمله بخطواتٍ متفائلةٍ وفي مخيلتهِ صورةُ ماردٍ أخضرَ فتحَ عيناً واحدةً بعد سباتٍ طال أمدُهُ.

الإنسان هذا السر

ساحرةٌ تلك الأصوات الدافئة التي تأتي من حناجر غجرية سمراء... جمالها في إيقاعها الأزليّ المثير للفضول، والذي مزّق صمت صحرائي الليلية والبنفسجيةِ الرّمال، والتي زينتها واحةُ التأمل فيما وراء الأبعاد.

باهرةٌ هذه السموات بنجومها ومجرّاتها والتي لا يعلم عددها إلا خالقها- والآخذة في الاتساع- ومنها السماء الدنيا، وعينيّ على الثقوب السوداء فيها وفي عينيّ الثقوب السوداء ، والفرق بين العينين أنّ الأولى أعظم لقوله تعالى: "لخلقُ السموات والأرض أكبر من خلق الناس...".

إن الثقوبَ السوداء تبتلع كلّ شيء حتى الضوء نفسه، ويقال إنها بوّاباتٌ للسماء التالية.

ونحن حين نعبد الله ونسجد له على سبع أعظم لكأننا نرسم خريطة على الأرض لمواقع السماوات السبع بأراضيهنّ، ويكون موضع السماء السابعة موقع عظم الرأس، لكنّ المسافات بين ما رسمناه بسجودنا والحقيقة لا يمكن حتى لخيالنا تصوّرها أو تخيلها.

فسبحان خالق الإنسان، وخالق الصورة والظل الواحد الصمد... خالق الذرّة والمجرّة، والذي ليس كمثله شيء.

نداءُ الماضي

حين تمخرُ الذّكرى عباب النفس كما السّفينة تمخرُ عُباب البحر... تبتسم النفس للذّكريات الجميلة والنادرة كندْرةِ جوهرة سماوية... كما تبتسم للذكريات المريرة لتجاوُزِها مثلما يبتسم من تجاوز الصعاب وتسلق جبلاً شاهقاً وجلس على قمته يحتسي ألواناً أربعة: لون جبالٍ كالقهوة وسماء صافية وأرض خضراء وعزلة عابد، وكل ذلك في فنجان واحد.

وأثناء احتسائه اعتليت سرج الخيال ونسجت خاطرة من صوف الواقع بنظرة فوق بنفسجية وبالاستئناس بأشعة الحرية تحت الحمراء.

هو النداء الروحيّ... نداء المجد الممتد من زمن كنعان الماضي إلى كنعان الحاضر والذي ارتدى عباءة الأنبياء.

وكنعان اليوم صلبٌ كالنخلةِ لا يفتأ يحفر... في الأجواءِ... في الأرض... في الماء، وفي كل سد، وعلى الجمر يقبض، ولما ولن يستسلم.

ترى هل حفر الجمر كفيه أم انطفأ الجمر في يديه؟

يبذرُ الأرض أشتالاً من صحابة، تنبتُ أربعين ضعفاً، لم يلبثوا أن يصنعوا مهرجاناً في السماء والأرض... مهرجان الكرامة احتفاءً ببيعهم أنفسهم.

كنعانيٌّ يأكل خبزاً وزيتاً وزعتراً، ويتحلى من شجرة الصبرِ، وينطقُ حكمةً من كتابٍ محكمٍ تصنعُ رجالاً ونساءً من حديد... لا يلينوا، وينسجوا الحديد.

فلا عليك أيتها الأقلام المعزّية النبيلة المحزونة النفس المكسورة الخاطر السجينة في أوطانها؛ الأقلام التي تتوغل في البحث عن الحقيقة كما يتوغل الليث في الصحارى والغابات بحثاً عن حقيقة الحياة، وكما يتوغل الجذر في الأرض.. لا عليكِ فليس كنعان وحده في ساحة الخيلِ، ولو تخلتْ عنه أمة غثاء السيل.

عصفورٌ ونرجسٌ وشتاء

كما تسوقنا الأقدارُ تسوقُ الأطيارَ، فقد تاهَ عصفور ودخل بيتي هذه الشتوة فأمسكته، ولعشقي للحرية استمتعت بإلقاء القبض عليه، ثمّ أطلقته. كان يقاومُ ويحسبني حابساً حريته، فينقرني ويحاول الإفلات، قدّمتُ له ماءً فأبى، وخبزاً فأكل، ثمّ أطلقته لما يبحثُ الأحرارُ عنه.

هي أشياءٌ بسيطةٌ تحدث، فلا أعرف لمَ يلحُّ قلمي عليّ لتدوينها، فحتى حين اشتريتُ في هذه الشتوة من سوق خان الزيت نرجساً- زينتْ عجوزٌ خضرةً تبيعها به- فقط رائحة النرجس السحرية هي التي حثتني على الكتابة.

ولما وضع الليلُ على القرية عباءته السوداء، وضعتُ هذا النرجس في الكأس واشتريتُ منه عطرهُ بالماء، والماء في هذا الشتاء ليس ككل شتاء، والعزف على وتر الرعد في هذا الشتاء ككلّ شتاء، فقد كان مزعجاً ومواربياً وراء إزعاجه خيراتٍ وبركات، كما تتوارى الولادة والحياة الأبدية خلف الألم والموت.

غالباً ما يختتمُ الشتاء معزوفته بإسدال ستارته الناصعة البياض على فرقته المعتادة والمكوّنة من الرياح حاملاتِ النایاتِ، ومدير الإنارة البرقُ

اللامع، والغيوم العاليات الغاليات الباكيات، والرّعدُ الذي لا يقهقهُ طرَباً إلا إذا حميَ الوطيس.

وها هو الشتاء يكاد يلملمُ أشياءه تلك ويحملها على عربة الفصول الدائرة ليرحلَ مبتسماً، وليفسَحَ المجال للعازف الأجمل والأروع.

ونلملمُ نحن متعلقاته من مدافئ وحطب وقصص لنضعهنَّ في المخزن، وعلى رفِّ الذّاكرة فيه.

ربيعُ آذار

حين يزورنا الربيع، أو نزوره، ولا أكتب فيه، أو عنه؛ كأنني أرفضُ دعوة صديق لي لمشاركته في فرح ما...

والفرح قليلٌ في بلادٍ يتنافس الحناءُ والدماء في تزيين أهلها.. تماماً كما يتنافس الشروق والغروب.

عاد آذار بربيعه الفوّاح، لكن غلبَ على اخضراره لون الدّحنونِ هذه السنة.

ويظلّ آذار يجري كالشمس حتى يستقرّ في الجنان.. حيث لا يدخلها ولا يشمّ ريحها المفسدون في الأرض في دار الفناء هذه.

وبجوارهم لا معنى للربيع ولا للأحلام.

وبالرغم من كل ما جرى ويجري تبقى راية الربيع السرمدية ترفرف.

اختر الإجابة الصحيحة

لما أحتار في أمر ما أتساءل، وجميلٌ التساؤل حين يقود إلى درب الخروج من المتاهة ونرى باب الشّمس.

فهذه الأموال التي تأتي ونقرأ ونسمع عنها لماذا هذا التباطؤ في إيصالها إلى مستحقيها من معلمين وغيرهم؟ ولماذا التركيز على هذه الشريحة من الشعب، وهل يريدون أن يضغطوا على هذه الشريحة بالذات ليجبروها على شيء ما، وما هو هذا الشيء، وحتى لو كان هناك غرض سياسي فهل هذه الشريحة من الشعب تمثل كل الشعب وشعبنا بالملايين؟ أم لأن هذه الشريحة تمثل الفكر والعلم وتبني الأجيال؟

كتبتُ هذه الكلمات خلف بيان للاتحاد العام لنقابة المعلمين الفلسطينيين والذي يدعو إلى إضراب جزئي هذا الأسبوع وإضراب شامل يومي الاثنين والخميس القادمين، وذلك حين وعدت الحكومةُ النقابةَ أن تدرس حل مشكلة الرواتب بعد عشرة أيام فأخلفت وعدها أكثر من مرة حتى صار بعض المعلمين يشكك بشراء ذمم بعض النقابيين من قبل الحكومة ونرجو أن لا يكون الأمر وصل هذا الحد.

وليس أخيراً... هل أسباب حبس المستحقات من رواتبنا الشحيحة أصلاً- والحمد لله- هي أسباب اقتصادية سياسية اجتماعية أم أيدلوجية، أم لا شيء مما ذكر، أم كل ما ذكر وأكثر؟

الغلاء والتغيير

كتبت خاطرة في نهاية عام ألفين وستة بعنوان (وداعاً عام 2006) قلت فيها أن حرف العين علا في ذلك العام.

وبما أن البلاء يزداد كل يوم وشهر وسنة، فقد ازداد عام ألفين وسبعة، وبحسب قاعدة كل زيادة في المبنى تدل على زيادة في المعنى، قلت: ماذا يمكن أن نزيد على حرف العين سوى نقطة، ليصبح عام ألفين وسبعة وكذا عام ألفين وثمانية أعوام حرف الغين، وماذا في الغين ترى العين هذه الأيام إلا الغلاء الفاحش المتصاعد من الضعف إلى الضعفين وأكثر في كل شيء.

وبما أنه لا يوجد ما يمكن زيادته على حرف الغين في اللغة العربية، فقد طفّ الصاع.

أصبحت الحوانيت تبيع جنباً إلى جنب مع الخبز والأرز حبوباً لوجع الرأس نظراً لطلبها من الناس بكثرة بسبب الأوضاع الكئيبة. فمنذ قرن وهذا الشعب المبتلى في كل شيء وهو يعاني من الآلام ويقبض عليها، وازدادت آلامه بعد خذلان المتخاذلين له طوال تلك الحقبة من الزمن...

قليل هم الذين يرقبون الحدث من صرْحٍ ذي بعدٍ مختلف؛ وبرؤيتهم الصائبة تلك يغبطون المتألمين على آلامهم لما يتبع ذلك من عبور البرزخ بيسرٍ على جناحين بلونين مؤتلفين يرفرف أحدهما بالرحمة والآخر بالعدالة...

جيل يأتي وجيل يرحل، وسحبٌ تأتي وسحبٌ ترحل؛ لكن... ليست هذه السحابة فوقنا هي سحابة الرشيد، ولا في حكام هذا الزمان معتصمُ...

وكما ليس في الجنة من فاكهة الدنيا إلا الاسم؛ وكذا النساء؛ فليس في هذا الزمان من رجال مجد الماضي إلا الاسم، والاسم عليهم كثير...

وبالرغم من ذلك ما زال هذا الشعب يجلس قرب الصخرة ينتظر اقتراب سارية سفينة يقف فوقها من يعيد رسم الخريطة لترى العينُ بجلاء حرف الغين في التغيير.

ذكرى لا تنسى

توطئة

حين أزور الماضي دوماً أحملُ إليه هديةً في سلةٍ فيها الشوق...

وحين يزورني المستقبل دوماً يحمل لي هديةً في حقيبةٍ فيها مفاجأة...

والحكمُ العادلُ بينهما هو الحاضر.

ضحك الأمس في عيوني فتبسمتُ في طريق الآلام المتعرجة والمنتهية حين مررتُ على أطلال ماضٍ تأبى ذكراهُ مفارقة ذاكرةٍ تنسى كثيراً... كان كلٌّ قد ذهب في حال سبيله ولا يدري عن حال خليله؛ فكأنْ لم نكن، ولم يكُ شيء إلا وجهٌ من السماء قد قطنَ أرض النكبة.

وبين هذه الذكرى وذلك الزمن نشأ وترعرع جيلٌ من الأطفال والأشجار، وصاروا في أعمارنا لما كنا في ذاك الزمن غير أني لا أدري لم التشبّثُ بماضٍ دهمهُ دولاب أمرٍ واقع من هذا الجيل؛ فهذا الجيل الذي وكأنه خيطٌ طرفهُ الأول تلك الذكرى موجودٌ في طرقاتنا وفي زوايا حاراتنا ولما نتأقلم معه، وهذا اللاتأقلم زوى تفكيرنا عن ضعف منا أن نعيش واقعنا؛ لكننا عشنا هذا الواقع تدريجياً بعد اكتساب مهارات من الخبرة منحتنا إياها الحياة، وعلمتنا أنْ ليس للأطلال كلّ تلك الأهمية،

لكن لم يكن هذا التعلم إلا بعد أن طوى الزمان من أعمارنا سنينا، وبعد قراءة حروف الأمر الواقع والتي كتبها قلمُ القدر بالعربية، وكان قد كتب أشياء جعلت بعضاً من ذكرياتنا تبدو كذكريات طفلٍ يتذكر بعد عقودٍ معلمه الأولُ حين علمهُ الحرف الأول في الصف الأول.

وكان قلم القدر بخطٍّ عريض قد كتب أشياء سُرقتْ منا سرقها جيلٌ دخيلٌ ممدودٌ بحبلٍ من الناس هي: ترابنا أشجارنا أعمارنا وشمسنا وهي أشياء لا تنسى، وهل النكبةُ تنسى؟

فإذا رأيت شخصاً يبتسم وحيداً في طريقٍ وسألته عن سبب بسمته، فلربما تكتبُ قصةً طويلة بقلمٍ مدادُهُ تلك البسمة.

تأملات في ما بعد الرحلة

بعد أن سارت بنا السفينة سنينَ طويلة... بدأت تتكشفُ ملامح ما قبل الرحلة القصيرة وما بعدها.

لطالما كنتُ أحسب السفر متعة فقط وتخلو من المتاعب، لكنها رحلة صعبة؛ إذ ليس ركاب السفينة كلهم كما تريد، بل كما أراد الله، وإن كان ثمة متعٌ فقليلة.

كثيرة هي التساؤلات خلال مرحلة العبور إلى العالم الآخر منها ما هو جائز، ومنها تساؤلات لا تجوز، فسبحان من لا يسألُ عما يفعل وهم يسألون.

من إحدى نوافذ السفينة ومن نافذة المعرفة رأيتُ بناءً وهدماً، وما بينهما قصةُ الخَلق.

صعدتُ على سطح السفينة واتكأتُ على الشرفةِ، وأمام ناظري عالمٌ جميلٌ يبدو في غاية الروعة والهدوء والإتقان، فتساءلت: لماذا خلقنا الله؟ هل خلقنا للعبادة والاختبار، أم للحروب والاختلاف، أم للتعارف والعلم والمحبة، أم لكل هذه الأشياء؟

وبينما السفينة وما تحملُ تتابع سيرها بهدوء نحو المعلوم وبلا استراحة إلى حيث ستتبدّل... علمتُ أن الله خلقنا ليرحمنا.

"ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين. إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم..."

الدّبّ الكسلان

حين تفوح رائحة البارود سرعان ما تتلاشى...

وذلك أنّ قلبي منقوعٌ بماء الورود...

سافرت الأطيار التي تعبق بتلك الروائح مشياً على الطريق للبحث عن كنهِ الأشياء ليس إلا لمتعةِ المعرفة؛ فلكل جديد بهجة.

ولربّما اختاروا البحث عن البهجةِ في الجديد لأن هذه البهجة يصعب على الأعادي اغتيالها والذين تعوّدوا اغتيالَ بهجة الطفولة والشباب والفرح.

قال الطائرُ الدّليل: الصّبرُ هو ما يُعَبّدُ طريقنا ويُسَهلها والذي به نكسب الوقت، وليس بالسرعة كما تظنون ؛ لأنّ في العجلة الندامة.

سار مركب الأطيار بسرعة الدّبّ الكسلان، وصبروا على مشاقِّ السفر وقد التزموا بوصيّةِ الدليل، وكلما واجهوا أمراً تأنوا ثمّ عرفوا فتعلموا العبر ، ولم ولن يحكموا على الأمور بمظاهرها الخدّاعة.

وعرفوا أن الصبرَ هو الطريق إلى العلم والمحبة وهو العلاج لكلّ شيء، وأنهُ القوّة.

طريقُ الشمس

ما أجمل الأرض الخضراء في الربيع، فكأنما الجنةُ تتنفس فيه، فحبي له جعلني أعيشه في كل الفصول، ولو أنّ جسدي في الصيف إلا أنّ قلبي فيه، والمحبون للمعرفة يتمتعون بأكثر من ربيع.

عالم الخيال عالم فسيحٌ يجعلك تصنع جنة من خيال تكون توطئة لجنة حقيقيّة فتعمل لها لتصل إليها.

ثمةَ أمور نحتاج إلى الخيال في محاولة لتفسيرها وقراءة يوم أو بضعة أيام من الماضي أو المستقبل، فوجود عوالم أخرى غيرنا في هذا الكون الفسيح المتسع أمرٌ ليس عجيباً وفي الكهف أسرارٌ عظيمة ستتبينُ يوماً ما.

الحديث عن مخلوقات فضائية ليس جديداً ولا غريبا؛ فبلوغ مغرب الشمس التي تغرب في العين الحمئة، وبلوغ مطلع الشمس، والسد ويأجوج ومأجوج، يحتمل أن تكون على غير كوكبنا، فوصل نبيٌّ من أنبياء الله مكن الله له وأعطاه من كل شيء سبباً(1) إلى مكانهم مُتبعاً(2) الأسباب. وفي التفسير أن ذا القرنين سمي بذلك لأنه رأى في المنام أنه يمسك الشمس بقرنيها، وربما تفسير ذلك أنه استخدم أسباب الطاقة الشمسية.

أشدّ منا قوة الأمم التي أهلكها الله سبحانه وتعالى في السنين الغابرة، وكم من أمم أخرى لم يقصصها الله تعالى علينا ولم نعلم عنها شيئاً، وربما اشتعلت حروب في الأزمنة البعيدة بأسلحة أشدّ فتكاً من أسلحة أيامنا هذه؛ ليعود ما تبقى من ناسٍ ليبدؤوا في البناء من نقطة الصفر بعد الخراب.

والناس اليوم يعتقدون أنهم في أوج تطورهم ،أن ما وصلوا إليه لم يصل إليه أحدٌ قبلهم.

وبينما الناس في المستقبل على ما هم عليه من أحوال متباينة؛ إذ بدأت تشيع الأخبار الغريبة فصار كل الناس على الأرض أمام أجهزة التلفاز والأجهزة الصغيرة المحمولة يرقبون بهلع الخبر الذي اتسعت دائرته لتَعمّ الأرض كلها.

أجهزة الإعلام الغربية تتحدّث عن غزو فضائي وعن أجسام فضائية غريبة بعشرات المليارات تتوجه نحو الأرض من كل حدَبٍ وأُفق، وأجهزة الإعلام الشرقية تقول إنهم يأجوج ومأجوج، لكنّ الخوف والهلع وحدّا كل سكان المعمورة لأول مرة.

إنهم يقتربون مسرعين نحو أرضنا من كل حدَبٍ(3) وأُفقٍ، وربما تؤكد كلمة حَدَبٍ أنهم لا يأتون من الأرض ولو أنهم من نسل آدم عليه

السلام، فلربما خرجوا يوماً ما لسبب ما بعلم ما إلى كوكب يشبه الأرض فوجدوا القوم الذين شكوهم لذي القرنين فبنى لهم السّد.

وسيدنا إبراهيم عليه السلام حين نادى في الناس بالحج أتوا من كل فجّ عميق إشارة إلى كروية الأرض، وليس من كل حدب عميق.

إنهم أضعاف أضعاف سكان الأرض، وأكبر جيش عرفته البشرية يأكلون الأخضر واليابس ويلتهمون الحيوانات وحتى الناس ويشربون البحار .

ومن اللطف الإلهي أن عيسى عليه السلام يكون في بيت المقدس وأنهم لا يدخلون مكة والمدينة وبيت المقدس، وحين مجيئهم إلى الأرض يرى الذين أشركوا أن عيسى عليه السلام ما هو إلا عبد أنعم الله عليه وأنه ليس بإله أو ابن إله تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وأن لا يد له ولا قدرة له ولا لأحد عليهم، فيتوجه بالدعاء إلى الله، فيرسل الله عليهم ديداناً أو حيوانات تدخل في آذانهم فتقتلهم، فتملأ جثثهم الأرض كلها، فيرسل الله الأمطار فتجرفهم إلى حيث شاء الله، ويسْدلُ الستار على صفحة مخيفة ليفتتحَ بعد ذلك على أرضٍ هادئةٍ خضراءَ كالجنةِ.

إشارات:

(1) السبب: الذريعة، ما يتوصل به إلى غيره- الطريق- الحبل- أسباب السماء: مراقيها ونواحيها- (فليمدد بسبب إلى السماء...) الحج 15- (فليرتقوا في الأسباب) ص 10- (لعلي أبلغ الأسباب- أسباب السموات) غافر 36- 37.

(2) اتبع: الشيء مشى خلفه وسمي الظلّ تبع لأنه يتبع الشمس حيثما زالت.

(3) حدب: حدب الظهر: تقوّس- من خواطر الأربعاء: 17/ 7/ 2008.

خاطرة في السراب

يكاد السراب أن يكون كالنار.

آنسيني يا رياح الصيف النادرة.. داعبيني.. لحنّي لي أعذب الألحان وأنت تعزفي على أوراق الشجر وتجرّي أوراق طلبة المدارس أمامي، وتلقي بها عن يميني وشمالي، أو فوق سور هنا أو هناك؛ بعد أن ارتاحوا من جميلِ عناءِ عام دراسيّ مضى، ثم احملي قيثارتي وألقيها في أيّ نهر تشائين.

أهيَ فلسفة الحياة، أم فلسفة العذاب؟ أن نعيش كل عمرنا على سراب؟

لقد أصبحتُ أعشق السراب فهو تسعة أعشار حياتي، وصار يكرهني؛ لأنني قتلتُ به فراغي، وحاولت أن أكون هو، وما سدّدتُ له فواتيره، وكلما حاولتُ ذلك كنت كمن يهاتفُ شخصاً من الماضي أو المستقبل، وأسمع ردّاً آلياً مكرّراً في كل مرة: حاول مرة أخرى.. لا سبيل لقبول طلب العزف على أناشيدك في هذه الحياة.

فقلتُ: يحاول السرابُ أن يكون كريماً.

رسوماتٌ على جدران غرفة قديمة

غرفةٌ قديمة زينتْ جدرانها رسوماتٌ وصورٌ مختلفة... في هذه الغرفة طلبةٌ جمعتهم الغربة، وألفت بين قلوبهم... يتسامرون كلّ ليلة حتى ساعة الصفر، وذلك بعد مراجعتهم دروسهم... هذا يحكي مأساة قريته حين شرّد أهلها، ثم ينتقل إلى الحديث عن بساطة القرى بعد ذلك، وكيف أنها كانت خالية من التلفاز، فكان الأقرباء يجتمعون في بيت أول رجل جلب التلفاز إلى القرية وكانوا وقتئذ يشاهدون مسلسل (صحّ النوم)، ثم بدأ التلفازُ بالانتشار رويداً رويداً.

وأحد الأصدقاء الثلاثة يحكي قصص جدّته عن (الغولة) وأنه وإخوته كانوا يجتمعون حول جدّتهم بشكل دائري بعد العشاء يسمعون القصة بلهفة وشوق، فمنهم من يستمع لآخر القصة، ومنهم من يغلبه النعاس.

والصديق الثالث يروي قصة سلامة الحسود.

يظلّ الأصدقاء يتسامرون حتى يطرحهم سلطان النوم؛ فإذا هم حين يقظتهم قد وجدوا أنفسهم ملتحفين سقف الغرفة، فيسارعون إلى عمل فطورهم الروتينيّ من البندورة المقلية مع البيض والفلفل الحار فإبريق

الشاي بالنعناع تارة، والميرمية تارة أخرى، ثم الانطلاق إلى محطة الحافلات لتنقلهم إلى جامعاتهم.

ورغم هذه الأشياء الجميلة إلا أنّ الحنين بين الفينة والأخرى يعتصر قلوبهم، وهل غير الحنين للأسيرة فلسطين.

وبعد أن دار دولاب الزمان الصامت حتى ابتعد عن غرفتهم مسافة ثلاثة عقود كان في غرفة مشابهة لغرفتهم، ومكان مشابه لمكانهم ثلاثة طلاب هم أبناؤهم لكن على جدران غرفتهم رسومات وصور مختلفة لأطفال ممزّقين ورسمة لجدار قد فتح الأطفال به فتحةً لتدخل منها الشمس.

الرّؤيا

حلماً أصبحت رحلتنا إلى سوريا بعدما كانت حقيقةً قبل أربعين عاماً وقبل حرب عام سبعةٍ وستين وتسعمائة وألف، وأصبح السفر الآن إلى أيةِ دولةٍ عربيةٍ شقيقةٍ للعمل أو لرحلة شيئاً وراءَ حدودِ القلب في زمن قطعتْ فيه الحدودُ قلوبنا قبل أن تقطعَ أراضينا المتسعةِ.

كان الشيخ محمود المقدسي يعمل في دمشقَ في سوق الحميدية وقد أحبهُ صاحبُ العمل لوفائه وتفانيه وإخلاصه في العمل وخاصة بسبب حثه لثمانية من زملائه على الصلاة، وقد استجابوا، وأصبحوا يصلون.

رأى الشيخ المقدسي ذات ليلةٍ في المنام أن ابنه الصغير قد توفي، فطلب من صاحب العمل أن يعود إلى فلسطين فأذن له.

اشترى بعض الهدايا لأمّه وزوجته وشقيقاته وعاد إلى بلاده، وحين وصل استوقفه ابن عمٍّ له في الطريق ودعاه إلى بيته، لكن الشيخ رفض وأجابه بأنه من المستحسن أن أذهب لبيتي أولا، فأصرّ عليه فرفض، فسأله بالله: أليس معك هدية لشقيتك؟- وكان ابن عمه زوجاً لشقيقته- فأجابه: بلا.

فقال له: فإنا نريدها الآن.

كان سبب دعوة ابن عمه له ليعرّج على بيته هو وفاة طفل الشيخ ابن السنة والنصف ولكي يمهد له خبر الوفاة.

تجمع الناس في بيت ابن عمه كعادة أهل القُرى حين يحدث شيءٌ ما مستغربين عودة الشيخ مبكراً من هذه السّفرة، ولم يجرؤ أحدٌ على إخباره بوفاة صغيره؛ حتى حضرت والدة الشيخ سائلةً باكيةً: بنيّ، هل عرفت؟ ومن سؤالها وبكائها تأكد أن الرؤيا تحققت.

بكى الحاضرون لهذا المشهد ولم يبك الشيخ بل حمد الله صابراً وراجياً قصرَ الحمدِ في الآخرة وظلّ صامتاً.

وحين عاد إلى بيته استقبله ابنه الصغير ابن السنتين ونصف قائلاً لأبيه بلهجة طفلٍ وبحروفٍ لاهثةٍ متقطعةٍ ما معناه أنّ: أخي مات، ووضعوه في الحفرة، وهذا سريره فوق الخزانة، وأشار إلى السّرير.

في هذه اللحظة فقط انهار صبر الشيخ وأجهش بالبكاء الشديد على طفله...

عودة العيد

توطئة

رغم سرعة الزمن إلا أنه يبدو لي أحياناً متوقفاً.

ثمة صورٌ من الذكرى خبأتها يد الزمن في قاع القلب...

ولأن عيد اليوم يذكرنا بعيد الماضي، وأن لا فرق بين أعيادنا لأنها ما برحت أعياداً يطوّق جمالها جدار الحزن والفرقة؛ فقد تذكرت أول عيد حين كنا نلتفُّ حول جدّتنا بملابسنا الجديدة لتفتح لنا الصندوق الأثري وتخرج من صدرها ببطء مفتاح قفله لتعطينا (العيديّة) وكانت وقتئذ قرشان أو ثلاثة، فنسلم عليها وتقبلنا باكية فراق فلذة كبدها حيث وضعه الظلمةُ وراء الشمس.

لكنّ الحياة أحياناً تبدو جميلة، وتنقضي مواسمُ ومناسباتٍ وحوادث، وموسم رمضان العالميّ من أجمل مواسم الحياة، وقد دخل الخريف في ثلثه الأخير حيث بدا متحمساً وتساقطت أوراق الشجر في أول يوم فيه كأنّما تُنذر بسقوط دولٍ من ورق، وكأن الخريف يغازلنا قائلا: تساقطت ذنوبكم في رمضان كما تساقطت أوراقي.

وموسم الجمعة الأخيرة في رمضان شهد اكتظاظاً وازدحاماً، فحين تقف على مكانٍ عالٍ في المسجد الأقصى لا ترى أرضاً، بل ترى ناساً غطوها، وسماءً غطتهم، وبما أن أرضنا أرضُ المحشر فإنك تتذكر يوم الحشر، وربما تتساءل: هل أكون يوم الحشر واقفاً في نفس المكان الذي أقف فيه الآن؟

كان سبب هذا الحضور الهائل من الناس أنّ هذه آخر جمعة كانت من رمضان ويتبعها ليلة القدر، وسبب آخر أن امتداد المدّ الإسلامي لم يتوقف لحظة واحدة بالرغم من كيد الكائدين، فقاعدة أن الإسلام في إقبال والكفر في إدبار قاعدة حتمية.

وختام هذه المهرجانات المباركة عيد الفطر السعيد، وهل العيد إلا بسمة على وجه طفلٍ تنظرُ الشمسُ إليه؟

وهل العيد إلا صفاءُ نفسٍ ومحبةٍ وتكافلٍ وتآلف؟

فئران تهاجم المدرسة

يقولون أن الفأر حيوان ذكيّ، ومن طبعه التخريب وقضم الأشياء التي لا تؤكل وإن كان شبعاناً؛ فمنذ انتقالنا إلى البناية القديمة قبل حوالي عقد من الزمن، والتي اشتريت بعد عامين من الانتقال إليها، ونحن نعاني في هذه البناية والتي أصابها النحس من أشياء كثيرة كموقعها والرطوبة وإزعاج الفئران، وكلما وجدنا خرقا في زاوية أو مكان ما رتقناه. إلا أن أثرها لم ينقطع إلا بعد وضع السم لها.

تبدو هذه المشكلة مثيرة للسخرية بالنسبة إلى الفئران الأكبر حجماً، والتي تقطع الحديد وتكسر النوافذ الزجاجية وتقضم الشبك الحديدي وتضع قطع الخشب والحديد والمسامير في أقفال أبواب المدرسة، ولا يكاد يمرّ أسبوع ولا يخلو الأمر من تخريب متعمد.

وبعد وضع جهاز إنذار وفي آخر سطو لأحد هذه الفئران فوجئ هذا الفأر بسرعة حضور الناس بعد سماع صفارة الإنذار وولى هارباً، وكان قد خلع الأباجور الحديدي وقضم الشبك الحديديّ للنافذة.

لكنّ الانزعاج من الفئران العادية أصبح شيئاً مسلياً بالنسبة للفئران ذوات القائمتين والدّم الفاسد، والتي ما زالت في جحورها بعد هروب الفأر الأخير.

لكننا لا نعرف إن كان ما وضعناه للفئران الحقيقية فقطع دابرها قد أخاف هذه الفئران الكبيرة والتي وراءها جرذان!

وأخيراً وليس آخراً ربما الذي يشجع هذه الفئران عدم وجود قطط في قريتنا؟

(2008/10/10)

قطرات الندى

قطراتُ الندى الليلية كانت تساقطُ على لوحةٍ معدنيةٍ بتناغمٍ ساحر كدقات ساعة الحائط، والتي على رأس كلّ ساعة تذكرنا بنشرة الأخبار؛ والتي يتربعُ على عرشها- النشرةُ الاقتصادية- في هذه الأيام بل ومنذ دخول أيلول والذي وَلوَلَ فيه الرأسماليون.

لكنّ قطرات الندى كأنما تسرع في إيقاعها وهي تغازل الفجر الأحمر لتنهي لحنها قبل أن تلحظها عين الشمس فتبخرها... فكأن هذا المشهد مع عبقِ الورودِ الملوّنة في طرقاتِ الليل الهادئ؛ كأنما هو سيمفونية هادئة تعزف لحنها من خلف السّتار ملائكةُ السماء، ومن أمامه تسبيحات المتأملين والمرهفين والعابرين في هذه الطرقات... وكأن شجرة السرو الخضراءَ والطويلة القامة تتهادى يميناً وشمالاً طرَباً لهذا المشهد، والذي زينَهُ بزوغ فجرٍ جديد.

فلما وصفت هذا قال القلم: قد كنتُ لا أبكي فرَحاً ولا حزْناً على ورقكَ إلا إذا ملأتني من حبر العشقِ أو الحربِ أو السلم.

فقلت له: سامحني فتلك أشياء وُجدتْ منذ الأزل، لكني أرْقبها متأملاً ولم أزل؛ غير أنّ قطرات الندى هذه المرّة هي التي أصابت أوراقي بالبلْل.

حواجز بين الجبلين

برَدَ فنجانُ قهوتي لما تاهت فكرتي في كيف أبدأ خاطرتي، وكانت بقربي دلتي، فصببتُ فنجاناً آخر سُخناً... فأحياناً كما يشتاقُ العاشق لمعشوقه، و الغريبُ لأهله وخِلانه، والأرضُ العطشى لماء السّماء، وكما يشتاقُ السّجينُ للشّمس، والسّفينةُ للمرفأ... تشتاق روحي للكتابة... فإذا ارتويتُ اكتفيت؛ حتى أظمأ تارة أخرى...

تسلقتُ جبلاً من زجاجٍ أزرقَ، فَسررْتُ لما وصلتُ وعلى قمته جلستُ، فلمّا نظرتُ من فوقه رأيتُ جبلاً صخرياً شاهقاً بلون القهوة، فصرتُ أرنو إليهِ لِما جبلَ الإنسانُ عليهِ... ولا أستطيع النزول من فوق هذا الجبل الزّجاجي، فكيف الوصولُ إلى ذاك الجبل الصخريّ؟

وبينما قطعُ الضبابُ الهادئ تتهادى في مشْيتها ببطء كعرائس تجرّ أثوابها فوقي وتظلّلني وتغازلني والجبلُ... بدوتُ في تأملي كأنني طائرٌ أرجوانيّ معلقٌ بينهما ويرفْرِف، ولّما نظرتُ من بعدٍ أبعدَ بدتِ الأرضُ لي كالتمرة وبدوتُ فيها كالذّرّة.

إن الحواجزَ بين الجبلين لا مرئية، وفي زوايا النفس مخفيّة، وتشبه إلى حدّ ما السّدّ الذي بناهُ ذو القرنين بين الصدَفَيْن.

ولعلّ المتعةُ هي الاستمرار في البحث عن طريقة توصلكَ إلى الجبل الآخر، وربما تكون بصنعِ جناحينِ، ولكن ليسا كجناح أولَ من حاولَ الطيران...

ولستُ أدري بعدئذٍ إلامَ سَتَرْنو نفسي التوّاقة.

حينما يبكي الرجال

إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، وإنا على موت ضمير الإنسانية لمحزونون ومكروبون وموجوعون.

حقاً للجمال أن يبكي بشاعة وجه الإنسانية في عصر الحضارة.. إن موت ضمير الإنسانية أعظم مصيبة من موت الأجساد.

آن لنا أن نصمت ويتكلم العالم.. آن للأفعال أن تتكلم.. آن للكراسي أن تتكسر على رؤوس أصحابها الذين أدمنوا عشقها فهان في سبيلها كل شيء وتحطمت على كراسيهم النتنة التي تفوح منها رائحة الخيانة كل مبادئ الشرف والإنسانية والقيم، فأصبحوا أوثاناً بلا مشاعر لا يبالون مهما حصل من قتل ودمار في سبيل المحافظة على هذه الكراسي العجيبة.

لقد أصبحت أكره الكراسي التي في بيتي لأجلهم، فهل هذه الكراسي ستحميهم من نار جهنم بعد هذا الصراع القصير في الحياة القصيرة؟

فيا نبيّ الإنسانية جمعاء صلى عليك الله ما تجدّد الليل والنهار بمحبتك نتوسل إلى الله اللطيف الحليم الحكيم العليم العظيم أن يرفع الله هذا البلاء عنا وأن يثأر لنا ممن ظلمنا.

حورية البحر

بالأمس كنا ننتظرُ الشتاء.. حتى يلدَ ربيعاً نقطفُ فيه حَنونةً أو ياسمينةً أو نرجسة.. انتظر الأطفال الشتاءَ ليختبئوا خلف بيتٍ مهجورٍ ليرموا فيه فتاتاً من خبزٍ أسمر أو حبات قمحٍ ذهبية فيصطادوا عُصفوراً يلاعبونهُ وللحريّةِ الخضراءَ يطلقونهْ.. كنا ننتظر الشتاءَ كيما نوقدَ الحطبْ، ونشعلَ اللهبْ.. نلتفُّ حول المدفأةِ نتسامر في حوادث الليالي ومسائلِ الحيارى وما الذي يوقظُ السكارى.. لم يحدث شيءٌ من هذا قط.. قد كان الشتاء حارقاً ومن دمْ.. جفّ الشتاءُ ونابت عنه الدماء.. سافرت سحب الشتاء البيضاء.. سافرت إلى القطبين.. نابت عنها قنابلُ الفسفور السوداء.. فنالَ المصابونَ الحسنيين..كان برقاً كان رعداً ثمّ كان حقاً.. لم نفتقد الشتاء.. جاء الشتاءُ بخيرٍ آخر.. فشتاءُ المياهِ يحيي الأرضَ وشتاءُ الدماءِ يُحيي القلبْ.. وأجسادنا كالسحاب تنزِفْ.. منذ ستين عاماً ونيفْ.. لكنْ.. أيُّ جُرْحٍ فيك يا فلسطين كجرحِ غزّة.. فلسطين يا أمّ غزةَ يا أُختَ مكةْ.. أيةُ خيْباتٍ في خريطتنا كخيْباتِ القمةْ.. فلسطينُ يا عروسَ الشرقِ يا إشراقةَ الشمسِ يا حوريّة البحرِ أعرفْ.. يا وجع الطفولةِ والكهولة.. أعرفُ العتابَ في عينيكِ على واسعِ الخريطةْ.. قد

ابتلت أجسادُ أبنائها وأطبائها من دماءِ أبنائك.. ستنبتُ الدّماءُ في كلّ الخريطةْ.. ستُنبتُ حصاداً من تينٍ وزيتون.. وسنابلَ قمحٍ كالرّماحْ.. ستنبتُ رجالاً أمثالَ النخلْ.. وخلايا كالنحلْ.. في كل مكان.. وحول النهر.. فاصبري وابشري.. فأبناؤكِ لا يُقتلون باهلَعْ.. وكذا الطفلُ الرضيعْ..

ستَرينَ كيف الخريطةُ أضحتْ بلون الربيعْ.. فاصبري وأبشري.. يا عروس الشرق، ويا حوريّةَ البحر.

من خواطر الحرب

(الجمعة: 23/ 1/ 2009)

بداية تأثير رياح التغيير

أضحت فنادقُ الشّراتون وغيرها أمكنةً لأناشيدِ الثورةِ والصّمودِ مثلما أضحتْ المساجدُ مناراتٍ للهدى وحتى كتابة عقود الزواج.

كانت البدايةُ حين هبتْ عاصفةٌ على الغرب أطاحتْ ببُرْجين في بداية عهد البائدِ بوش والذي انتهى عهدهُ بعاصفةِ الحذائين؛ فكأنّ العواصفَ كانت أفكاراً.

وبين البرجين والحذائين أكثر من سبع سنين عجاف من الظلم والعنجهية والقتل والمذلة والدّجل... كان يتخللُ ذلك ألعاباً رياضيةً وعروضاً بهلوانيةً وسحريةً إلهائية وحملاتٍ تضليليةٍ؛ لكنها يائسة، وسرقةً ونهباً لخيرات الأمة، وذلك بعدما أن سلبوا البنى التحتيةَ للأمةِ وهي الكرامةَ والنخوةَ والشهامةَ.

ربما يتعجب البعضُ إذا قلتُ أنّ كلتا العاصفتينِ والتي بينهما السنينَ العجافَ هما بنفس القوة والدرجة على مقياس ريختر الشعبي والمعنوي؛ وعلى ذكر التعجب فقد تعجبتُ كيف تفادى الفرعونُ الأحولُ الحذاءَ في حركةٍ بهلوانيّةٍ وكأنه عفريتٌ في سنّ العشرين.

ثمةَ أمرٌ آخر لتأثير رياح التغيير رأيناهُ في الماء الذي أصبح عذباً فراتاً بعد أن تبخر بالنيران وبقيت الأملاح ؛ فلا يجب إعادة الملح للماء بحجة أنّ الكلّ يستطيع السباحة في البحر المالح.

وإنّ لنسائم التغيير رائحة تجدها مقبلةً من تونسَ على نفس خطّ العرضِ الطويلِ من أمّ علاء حين استعدّت بالتبرع بإحدى عينيها وإحدى كليتيها لأطفال غزّةَ.

وإن لها لرائحةً في الغضبةِ التركية والشجاعة الفنزويلية والمظاهرات العالمية والعربية وازدياد المحطات الخيرية، وإن للتغيير رائحةً تعبقُ بقوة في اختلاف الميزان الذي توزن به القوى؛ فكيف لو أصبح في سمائنا أكثرُ من قمر فسوف يكون ضياءُ شمسنا أكثرَ نوراً وإشراقاً.

لكننا سنبقى ننتظرُ أن تتغير في هذا الزمانِ أنشودةُ- ظلمٌ في كل مكان- ليحلّ مكانها أنشودةُ- عدلٌ في كلّ مكان-.

وذلك بعد أن تقطعُ رياحَ التغييرِ كلّ حبالَ خيمِ الظالمين.

(من خواطر الأربعاء 4/ 2/ 2009)

قالت وقلت

قالت: من أنت؟

فسمعتُ وتجاهلتُ فسَأَلتْ ثانيةً فقلت: أنا ثانيةٌ في أواخر الزّمن الأرضيّ ولكلّ ثانيةٍ حدَثْ.

قالت: هل أنت شاعر؟

قلت: أنا إنسانٌ وكلّ إنسانٍ شاعرٌ وليس كلُّ شاعرٍ إنساناً.

قالت: فمن أي البلاد أنت؟

قلت: من بلادٍ يدْفَنُ فيها الشّجرُ والفكرُ وحتى الحجرُ... ويُنْسَفُ فيها الرجالُ والأطفالُ والنّساءُ كما تُنسفُ الجبالُ بقنابلَ تَزنُ مئاتِ الأرطالِ تلقى عليهم من فوق سبع سماوات(*) فالحمد لله على كل حال.. من بلاد فيها الناس كالماس بعد أن يسْتَخْلصَ من الحجارة بالنّار فيتلألئون كنجوم السّماء.

قالت: يبدو أنكَ من أرضِ الحرب فهل من أملٍ في السّلام، وهل في أرضكم ورودٌ ملوّنةٌ وأزهار؟

قلت: ليس لنا في الحياة سوى رسالةَ السّلام للإنسانية جمعاء منذ زمن أبينا الأول آدم عليه السلام والذي بنى البيتين الأول والثاني في الأرض..

وأرضُنا مليئةٌ بالورود والأزهارِ ذات العبق السّاحرِ الأجْمل... لكن كلَّ أزهارنا حمراءُ لأنّ ترابَنا أحمر... ارتوى من دماءِ أهله فأضْحَتْ أزهارُنا تعبقُ برائحةٍ واحدةٍ... رائحةِ المسْك.

قالت: إذا كانت بلادُكم هكذا فهل بقيَتْ في مآقيكم دموع؟

قلت: لم يبقَ فيها دموعٌ، ولكن رُغْمَ ذلك فإنّ دموعَنا تسيلُ حينما نرى أهلنا حولنا عدَدَ نجومِ السّماء وعدد حباتِ الرّمالِ في صحراء الرّبْعِ الخالي ينظرون إلينا ونحن وحدنا في ساحة الوغى نُقارعُ الأعادي بالأيادي وقد اسْتَخَفَهُمْ حُكامُهُم الذين يُكدّسونَ الأعتِدة وقد أصابها الصدأُ كما الأفئدة؛ وقد سامحْنا أهلنا لِتضامُنهم بعد أنْ أخْفضنا سَقْفَ دُموعنا إلى كلمةِ أملٍ وعطفٍ ومُؤازرةٍ منهم... حَزنوا علينا ستّينَ عاماً حتى أننا حَزِنا عليهم لحُزْنِهم علينا.

فقالت والدّمعُ في عينيها: ليتني من بلادكم فطوبى لكم يا أحرار.

فقلت: طوبى لك فأنت من بلادنا ولو كانت بلادك وراء المحيطات والبحار.

فأرادت الذّهاب فقلت: لطفاً لم أتعرّفْ من أنتِ؟

قالت: أنا ثانيةٌ في أوائل الزّمن الأرضي ولكلّ حدثٍ ثانية.

وحين عدتُ وحدي إلى بيتي لم أعدْ وحدي. ورأيتُ الزّمانَ بين السّتينَ والسّبعينَ يسيءُ ويَطمِسُ وجهَ الظلام.

(من خواطر الأربعاء 11/ 2/ 2009)

(*) إشارة إلى أنّ ما أصابنا هو إرادةُ الله وقدره فله الحمد دائماً على ما كتَب.

يحكى أنّ...

يحكى أنّ أحد الصالحين قتِل ظلماً في إحدى القرى، وكان أباه أعظمَ شأناً منه في الصلاح والحكمة، وقد مات قبله بسنين.

ثار أتباع الرجل الصالح الذي قتل ظلماً وحزنوا عليه سنين طويلة، وظلوا في كربٍ وبلاء حتى بالغوا في ذلك لدرجة أنّ ذلك الرجل الصالح لو عاد حيا لنهاهم عن تلك المبالغة في الأحزان.

ولا خلاف أنّ كلّ أهل القرية حزنوا على الرجل الصالح حزناً شديداً ويحبونه، ويؤمنون بقدر الله تعالى الفعال لما يُريد ويؤمنون بقضائه يقول تعالى: (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم...)؛ فمن لم يأسَ على ما فاته ولم يفرح بما يأتيه فقد جَمعَ الزّهدَ من طرفيه.

ظلّ أتباع الرجل الصالح كذلك حتى انقسمت القرية إلى قسمين شجّعت اللصوص والقراصنة على النهب والسرقة، إلا أن عرفوا في نهاية الأمر وبعد مدّة طويلة أن تلك المبالغة في الأحزان قد أضرّت ضرراً بالغاً في القرية ما سمح بدخول اللصوص والقراصنة.

اجتمع وجوه وحكماء القرية واتفقوا على العودة إلى الوحدة ودفن خلافاتهم إلى الأبد لمجابهة اللصوص والقراصنة والطامعين وشعارهم (يداً بيد معاً تحت راية الوحدانية للواحدِ الأحد).

النرجس

داعبت قطراتُ المطرِ بالأمسِ هواجسَ نفسي... غير أنّ روحي كانت تمرحُ في ليل أنسي تلك الليلة، فارتشفتُ ما تبقى في كأسي من الشاي البارد بسبب النسيان، وقد بدوتُ في غرفتي بلا رأسي حيث ألقيتُ نظرةً من النافذة على المطرِ والليل.

كانت المزاريبُ التي تصرّفُ المياهَ التي على سُطوحِ المنازلِ تحدِثُ تناغماً سحرياً بين الزمن والحَدَث.

تنهدتُ تنهيدة المشتاق إلى سكون الليل بل سكون الدنيا كلها... وتاقت نفسي إلى النرجسِ ورائحته الزكية الذي اشتريته في الشتاء الماضي... اشتقت إليه بحزن وذلك أن رائحة البارود هذا الشتاء هيمنت على رائحة النرجس، فكأنّ لا معنى لأيّ شيء لمن يعيشون بين وحوشٍ بشرية.

عدتُ إلى زاويتي وألقيتُ نظرة على ما لا أسمعهُ ولكنّي أفهمه ففيه أعبرُ آلة الزمن الورقية والتي حملتني هذه المرة إلى زمن نبوءة دانيال الجميلة والطويلة والممتدة إلى زماننا هذا وأبعد؛ فمنذ كانت مساحةُ

مملكتنا الخامسةَ كمساحة القمر كانت الممالكُ الأربعُ قد ولتْ، ونحن نرنو إلى أنْ تصبحَ مملكتنا بمساحة الأرضِ كلها.

وعسى لما تكتملُ النبوءة يصبحُ للورد رائحة كرائحة الجنة، وللحياة معنى باختفاء الحدود السّوداء التي على خريطتنا الأرضية والتي قسّمتنا كظهر سلحفاء بطيئة حدباء، فصرنا كما أراد حكامُنا نستدفئ في ليلنا الطويل البارد بضياء نجومه، ونقرأُ بضيائها؛ والتي هي للمسافرين التائهين في الصحارى، وللمسافرين التائهين في البحار الواسعة في الأزمنة البائدة، وربما للمسافرين عبر المركبات الفضائية مسْتقبلاً.

لكننا نريد الشمس، فهي مصدر الطاقة...

وما زلنا ننتظر علامة في السّماء، أو في الأرض، وننظر بلا اتكال إلى مشرق الشمس... لأننا أبناءُ المملكةِ الخامسةِ الأبديةِ العادلة.

(2009/12/13)

القدس عاصمة الثقافة العربية

تعدّد العوالم

لطالما أشرق الشرق بشمسه البهية المعنوية على قلبي فأنعشَ روحي، وذلك لأنه خلف النهر القديم يقطنُ جزءٌ من شعبٍ ممزّقٍ يشتاقُ للغرب كما اشتياقي للشرق.

وحيثما تكون الشّمس يكون تحتها جزءٌ آخرَ من هذا الشعب الذي أصبح فؤادُهُ أفرغَ من فؤاد أمّ موسى وهو ما برح ينتظر أن يجتمع شمله في الأرض التي بارك الله فيها للعالمين.

وكلما نفحتْ ريحُ الشّوقِ على قلبي أسكبُ عليه ماءَ السّماء كما تسكبُه على الأرض فأطفئُ نار الشّوق بزيارة بعض الأهل وراء النهر الخالد.

وللزيارات دوماً في مخيلتي علاقةٌ بالأقفال وعالم البرزخ والضرائب؛ فبعدد أيام تلك الزيارة أدفعُ ضريبةً تتعلقُ بالأجر في البعد عن أرض الحشر.

غير أنني هذا العام وددتُ لو كنتُ حزْمةً من ضوءٍ كيما أسافر بسرعته في رحلة تقاس بالسنينَ الضوئية إلى العوالم الموازية لعالمنا باعتبار وجود سبعِ سماوات وسبعِ أراضين لعلي أزور أرضاً من الأراضي السّتة الباقية. لكنني لو فعلت ذلك حتى بخيالي فإن الكون سيبدو لي هارباً مني بسبب

اتساعه المستمر منذ بدء الخليقة ناهيك عن حجمه الهائل دون اتساع حيث لا يستطيع العقل أن يتصور أو يعقل أو يتخيلَ حجمه.

لذا عكفتُ عن هذه الزيارة الخيالية لأحاول مُمتطياً حافلة الصفاء زيارة نفسي.

نجم الشرق

حين تلفّت الطائر الرماديّ غرباً وهو في قفصه النحاسيّ الكبير الجميل- حيث مكانه وزمانه- إلى صفحة السماء الجميلة الواسعة رأى نجمةً منعزلة عن باقي النجوم لفتت انتباهه فناداه انعزالها فخاطبها مستأنساً: أيتها النجمة الغربية موتي كرفيقاتك القديمات وابتلعيني كذرّة من غبار نجم.

فقالت بلغة شعاعها الذي حللته عيناه: دعْكَ مني أيها الطائر المنتظِر ومن وحدتي وبعدي، ولا تستعجل موتك وموتي فإن أعمارنا نحن النجوم بنات السماء لا تقاس بأعماركم أهلَ الأرض وسبحان الحيّ الذي لا يموت، ولكن انظر إلى جهتك الشرقية من صفحة السماء وتفاءل، فأنت في زمن ميلاد نجم الحياة والميلاد والبعث، والذي سيظهر من الشرق كما ظهر النجم الخاتم قبل قرون.

قال لها: لقد كنت وما زلت وما يئستُ أنتظره؛ لأن نوره سيملأ أركان المعمورة وتَسْعدُ به كلّ الأطيارِ أيما سعادة، ولكنني حين رأيتك أيتها النجمة كأنّ نداءً حزينا قرأته فيكِ من الماضي ناداني ولا أعرف كنهه.

قالت: بل في أعماقك تعرف.. ناداكَ لمعاني وسأفسّرُ لك المعاني فعيناكَ لا تنظرانِ للأواني؛ إنه حزنك الحاضر على الظلم وانقلاب الموازين وسخافاتِ المقاييس، إنه اشتياقك للماضي المجيد وعدالته التي طالما اشتقتَ إليها، والتي تُعيدُ الأمور إلى نصابها في زمنٍ ما أصعبَ أن يتحكمَ فيه الأنذالُ بالأحرارِ.

فقال: صدقتِ، ولربما نستعيد ربيع زماننا الأخضرَ بعودة العدالة والسلام لتصبحَ الأرضُ بهما مخضرة.

والتفتَ الطائر الرمادي إلى النجمة ليودعها فكانت تاهت بين ناظريهِ، أو تاهتْ هي في عينيه.

يوم من أيام بدر

لفتت انتباهَ بدرٍ مشاجرةٌ أو حالةُ استنفار، فترك كتابه مسرعاً نحو النافذةَ وكاد يتعرقلُ بكرسيٍّ كان أمامه.

لم تكن كالعادة مشاجراتُ صيفٍ بين البشر هذه المرّة إنما صياح صبيانٍ حين رأوا مجموعةً من العصافير تزقزقُ بحدّةٍ وترفرفُ بقوّةٍ، فتبسّم مستمتعاً بالمشهد فلربما رأتِ العصافيرُ في شِقِّ الحائط أفعى فأعلنت النفيرَ العام، وكان ذلك.

سرعان ما حضر أحدُ جيرانه فتحلقَ الصبيانُ حولهُ وتبيّنَ الأمرَ فأحرق خرقةً بعد ربْطها برأس قضيبٍ حديديّ طويلٍ وقرّبها من الشّقّ الذي في حائط البيت القديم، فخرجت منه أفعى كبيرةٌ تترنّح من الدخان فقتلها بالقضيب وشقّ بطنها بقطعة زجاجٍ واخرج من بطنها أربعةُ عصافيرٍ لا يزالُ عليهنّ ريشُهنّ وسْطَ فرحٍ ومرحٍ وخوفِ الأطفال المتحلقين حوله.

حدث ذلك وبدرٌ ما زال ينظر صامتاً من نافذة بيته المطلةِ على الحياة. فلما اطمأنّ على هذه النهاية التي نسي تصويرها ترك النافذة مفتوحةً وعاد

ليبحث في كتابه عن الصفحة التي وصلها، فقد أغلقهُ بسرعة دون وضع علامة كالعادة في كتابٍ لا يملُّ قراءَ ته.

لكنه ما لبث أن أغلق كتابه وعاد لتأملاته وتساؤلاته التي لا تنتهي غير أنّ هذا التساؤل داعب فكرهُ: لماذا لم تكن نظرتي للحياةِ في سنّ الأربعينات كنظرتي في سنّ العشرينيات؟ وإن كانت كذلك هل يتغيرُ شيءٌ من القدر؟

لكنّ بدراً استدرك الإجابة: فتَحْتَ قانون قسمةِ المعيشةِ الربّانيّ العادل لا تعني الإجابة عن هذا التساؤل شيئاً... فما أحسنَ الرضا.

رنّ الهاتفُ فإذا صديقهُ يذكرُهُ بموعدِ التسوّق من مدينة بيت لحم، فطلب إمهالهُ بضْعَ دقائقَ حتى يستعدّ، وتأففّ بعد إغلاق الهاتف بسبب نكَدِ الطريق وحواجزها العسكرية.

قال لصديقه الذي يقود السيّارة: رحمَ اللهُ أيامَ زمان حيث كنا نذهب مشياً إلى بيت لحم وكنا نصل أسرع من هذه السيارة. أنحنُ جنينا على أنفسنا أم جنى علينا عرْبنا؟

أجابَ صديقهُ مبتسماً: نحن في زمنٍ لا يعرَفُ فيه من الجاني ومن المجنون ومن العدوّ ومن الصديق!

ثمّ سكتا لتستغلّ صمتهما نسائمُ الخريف تداعبهما كالمُواسية لهما من نافذة السيارة كأنها تقول لهما إنّ عجلة الزمان أسرعُ من عجلة سيارتكما

وسيطوي الزمانُ مرحلتكما، ولربما تعودان إلى التسوّق من بيت لحم مشياً على الأقدام بعد أن تروْا بدراً من الأيام.

خامُ الثورة

(إهداء إلى تونس الناهضة الخضراء)

لي جيبتانِ من نسيجِ الألمِ
أسكَنتُ في التي على سطح فؤادي وَرَقي
أغمدتُ في التي على ناصيتي سرائرَ من قلمي
تحتَ النجوم الماضيةْ
أُنادِي نخوة العرَبْ؛ لكنها قد قتلتْ
أُنادِي تحتَ صخرةٍ قد ثقبتْ
يا ريحَنا
يا شمسَنا التي تخدّرتْ أزيلي العقبةْ
هيا وَفكي رَقبةْ
تسلّلي لكهفنا... هذا الذي في قدْسنا
حيثُ ظلامٌ دامسٌ
وحيثُ جورٌ وقساةٌ ظلَمَةْ

***

وكلما حرّكَ مِحدافٌ حَدَثْ
على جدارٍ قلمي حطَّ وَخطْ... ثم رَحلْ

فكان رسماً من أملْ

يراهُ دوماً إخوةٌ لنا عبثْ

لكنْ قريباً تعصفُ الأرياحُ بالفراعنةْ

فابنُ عليّ... اسمٌ مضى... أضحى دَنيّ

كأنهُ... ظلْ ما مَكثْ

إلهنا... احفظ لنا تونسنا

ابقِ لنا ثوْرتها منقوشةً في الذّاكرةْ

تؤْنِسنا

فخامُ ثورةِ العربْ

وغيرِهم...

من أرضنا.. من بحرنا

من دمنا.. من سجننا

من فقهنا..

ومن غضبْ

فلا عَجبْ

(2011/1/28)

حكام من ورق

حين يعمُّ الظلمُ بين الحكام ورعيتهم يتحول الحاكم دون أن يشعر إلى حاكم من ورق، حيث بظلمه وجبروته قد حكم على نفسه بالزوال مهما عضَّ على كرسيه وتشبّث به، وقد حرم الله الظلم على نفسه وحرمه علينا فالظلم ظلمات ودعوات المظلومين مستجابة.

وأسباب ظلم فراعنة القرن الواحد والعشرين كثيرة وأهمها ولاؤهم المطلق لدول الاستكبار العالمي والتي تقودها يد الدجال الخفية تمهيداً لخروجه ليحكم العالم تحت راية واحدة في دولة واحدة بنظام عالمي واحد.

والأرض لا شكّ قد مِلأت ظلماً وجوراً كما قال النبي صلى الله عليه وسلم وستملأ قسطاً وعدلاً، فهذا من العدل الرباني والذي من أسمائه سبحانه- العدل- وسيحل العدل محل الظلم بإذن الله.

وكما أن هناك شرّاً مخبوءاً بقيادة الدجال الظالم وله أتباعه الكثر؛ فإن هناك خير مخبوءٌ بقيادة المهدي العادل وله أتباعه الكثر، وسيحلّ العدل محل الظلم كما حل سابقاً الظلم محله بعد الحرب العالمية الثانية بعد أن قسموا بلادنا كما تقسم الكعكة فتداعت عليها الأيدي تنهش منها.

فهذا حالنا ونحن كغثاء السيل أو كالمارد النائم، لكن سرعان ما تتغير الأحوال حين ينفض المارد عنه النوم ويقوم نشطاً خاصة بعد نوم قارب القرن من الزمن وبمجرد تململ المارد تتململ العروش ويهرب أصحاب الكروش.

فهل نحن على أعتاب الهجمة المرتدة وخاصة ونحن في آخر الزمن؟

وأخيرا أتساءل: ما الذي يمنع ولو حاكماً واحداً من حكامنا الكثر أن يكون رشيداً وشريفاً ووطنياً وعادلاً ومحبوباً من قبل شعبه؟ وليبقَ متمسكاً بهذا الكرسي ما دام متمسكاً بالصفات هذه، ويكسب الدنيا والآخرة... ما المانع؟

هل لأن الشعوب هي أيضاً من ورق؟

فالذي جعل الحاكم من ورق هو الشعب، فإذا صلحت الرعية صلحَ الراعي، وربما العكس جائز، وكله خير وبركة ما دامت تلك الحالتين تصبان في نهر التغيير.

(2011/1/31)

ثورة الشتاء بلا سيف

لّما أرخى الليل سدوله المزخرفة بقطع الغيوم الحالمة والتي تسمح برؤية نجومه المتلألةِ في شتاء هذا العام المبارك- كما تسمح بعض القنوات برؤية الحقيقة- تلفعت بلحاف الأنسِ المُحاط بإطار الرجاء؛ رجاءً أن يحفظ الله ثورة شعوب طالما قمعها فراعنة هذا الزمن.

فقد أشرقت شمس تونس على مصر متخطية جارتها، فأثارت مصر فثارت.

لكن ما لبث أن عكس البحرُ الأحمرُ شعاع الثورتين بمرآته الطويلة ذات القرنين فارتد الشعاع بقوة إلى ليبيا فالتهبت ثائرة على ثالث الفراعنة فارتعبت جزيرة العرب لهذا الحدث الجلل والذي حير الشرق والغرب.

تخطيت هذه الأحداث قليلاً لأتمشّى قرب خطّ شطّ الزمن فرأيت عصافير النهار تحتفي مزقزقةً بغرس الشعوب لبذور الحرية- والتي باركتها أمطار هذا الشتاء ودماء هؤلاء الأبناء- استعداداً لإخراج الأرض لبركتها ولتتويج فارسها .

(2011/2/24)

سوالفُ العدل

تحرسُ الدجاجة صيصانها من القطّ فلا يقترب، وإذا فعل تنتفضُ فَيُولي هارباً، وتنتفض أغصان الأشجار كلّ خريف على ورقها الأصفرَ رافعة لواء التغيير السنوي فيتهادى على الأرض بسلام وتنتفع منه الأرض على الأقل كَسمادٍ؛ لكن حكامنا من الأشجار الدائمة الخضرة وخاصة كشجرة الزعرور فهي ذات شوك حادّ وثمارها الصغيرة تنفع لمرضى القلوب والذبحة الصدرية فيطعمون منها الشعب كي يصبر.

الصحراء الكبرى تنتفض برملها على سوط الشمس اللاذع لتصنعَ تلالاً وظلالاً لمسافرين يبحثون عن مدينة الحرية والعدالة.

وحين يجوع الجراد يشهرُ سيفَ الكثرَةِ التي تغلب الشجاعة؛ فينسق في عالمه اللاإفتراضي على موعد الخروج، فيملأ السماء، ويقع على الأرضِ الخضراءَ ثم يرتفع، فإذا هي برداءٍ آخر، فتصبر الأرض وتنتظر عربة الفصول الدائرة حتى يأتي الشتاء ليصنع لها رداءً آخر بصنارة البرق، فتهتزّ لما ينزل الماء عليها وتنبت.

الثلج الباردُ في القطبين ما زال ينتفض ليحْدِثَ تغييراً في الأرض وانهيارات ثلجية تؤدي إلى تحويل الصحارى لتصبح مروجاً وأنهاراً.

وبين هذه الانتفاضات الطبيعية أصبح كل شيء قابلاً للتغيير بسهولة وكأنما تحثّ الطبيعة الناسَ على محاكاتها.

انتفضَ الجحرُ والشجرُ والرملُ والنملُ والتركُ والفرسُ والعجم؛ فليت شباب الخليج والجزيرة ينسون ولو قليلاً كرة القدم.. حتى يستريح الناس من التحليلات الرياضية والتي تديرها عشرات القنوات الرياضية وتنفق الملايين عليها والساعات الطويلة في تحليل كيف مرت الكرة من هنا أو من هناك فترى المعلقين يسردون حياة لاعب لا يفقه إلا الكرة ويعرفون حسبه ونسبه وماذا يحب وماذا يكره، فليتهم عرّفونا برجال عظماء في التاريخ وليتهم يسمعوننا حوارات فقهية وفكرية وأدبية وثقافية وعلمية حتى تستفيد الأمة.

وديننا يشجع الرياضة ولكن ليس بهذه المبالغة الكبيرة فالإسراف لا يحبه الله حتى في الأمور المباحة.

وأخيراً ستعود إن شاء الله قريباً جزيرة العرب مروجاً من العدالة وأنهاراً من الحرية بانتفاضة القحطانيين قبل عودتها مروجاً وأنهاراً بانتفاضة القطبين، فليحملوا سواك العدل ليكسروا به عصا الظلم وحاملها.

(2011/3/13)

رحلة مدرسية إلى القرى المهجّرة

كالعادة تأتي الحافلة في الثامنة صباحاً ويصطف الأولاد بإشراف المعلمين والمعلمات فيصعدون للحافلة بفرح وسرور وقد اشتروا ما يحلو لهم من البقالة غير الأكل الذي أعدته لهم أمهاتهم للتزود للرحلة.

كان يوماً مشمساً مناسباً للرحلات وخاصة حين تكون الرحلة في منتصف آذار حيث تفتحُ أزهار اللوز وتظللنا السماء الزرقاء وكأنما نسيرُ على بساطٍ أخضرَ باستحياء كونَ الثوب الأخضر جديداً.

بدأ الأولاد بقراءة دعاء السفر بتوجيه المشرف وشرع بإعطائنا لمحة تاريخية عن أرض الأنبياء عروس الشام منذ العام 1917 وحتى يومنا هذا.

وانطلاقاً من قرية صور باهر مررنا بأول قرية مهجّرة وهي المالحة ثم بقرية لفتا وهي أكبر القرى المهجرة مساحة وتصل حدود أراضيها إلى شارع صلاح الدين في القدس والتلة الفرنسية ولا تزال فيها عائلات من قرية لفتا مثل عائلة دار أبو ليل وأبو طاعة.

وكان اللفتاويون آنذاك من أغنياء الناس نظرا لمساحة أراضيهم الزراعية، ثم مررنا بقرية كالونيا ثم القسطل ومعناها بالعربية (القلعة)

وتقع على قمة الجبل وحولها خندق صخري بعمق 170 سم حفره المجاهدون آنذاك، وقد كتب على القلعة بالعبرية (بيت المختار)، ويقطن الآن في القسطل يهود اليمن وغادرناها الساعة العاشرة.

وبعد القسطل مررنا بقرية صوبا وفيها مدينة ألعاب لم نعرّج عليها وهي أكبر القرى المهجرة من حيث عدد السكان، وقد أنشأ سكانها بعدما هجروا قريتين قريبتين منها وهما بيت نقوبا وعين رافة ومن قرية صوبا رأينا قرية أبو غوش وهي الوحيدة الباقية حتى اليوم وفيها سكان عرب.

وبالنسبة لتسمية قرية عين رافة بهذا الأسم هو أنه مرّ راهبٌ بفلاح من هذه القرية وطلب منه ماءً فلم يكن مع ذلك الفلاح إلا قدراً يسيراً من الماء فأعطاه للراهب، فسأله الراهب: هل هذا كل الماء الذي معك؟ فأجابه: نعم، فلما رأى الراهب أن الفلاح قد آثره وأعطاه كل الماء الذي لديه قال له: سأدلك على عين ماء مهجورة وقد فعل، وسميت هذه القرية نسبة لتلك الحادثة باسم الراهب رافا.

ثم توجهنا إلى قرية صَطاف تناولنا طعام الإفطار على مشارفها، وفيها عين ماء، ومقابلها ناحية الشرق يبدو لنا مستشفى (هداسا عين كارم) وكأنه قصرٌ أبيض وسط مروجٍ خضراءَ عرجتها الجبال.

ثم مررنا بعين كارم وهي من القرى المهجرة غير المُدمرة وما زال البناء عربيا لكنّ السكان يهود.

وعين كارم مكانٌ مقدسٌ بالنسبة للمسيحيين لأنه أيام هيرودوس حين أمر بقتل الأطفال هربت سيدتنا مريم عليها السلام بابنها عيسى عليه السلام إلى عين كارم وكان طفلاً، وعاش طفولته في هذه القرية قبلما ترحل به إلى الناصرة..

ويقال بأنه يوجد مغارة اسمها مغارة الجماجم حيث كانت مملوءة بجماجم الأطفال الذين أمر هيردوس بقتلهم.

وفي طريق العودة مررنا بقرية الولجة التي احتلت في العام 1948 وعرجنا على جبل به مبنى تذكاري أقامه اليهود تخليداً لذكرى الصداقة بين الشعب الأمريكي والإسرائيلي وهو مبنى شبه هرمي دائري مكون من 53 عمودا بعدد الولايات المتحدة الأمريكية.

وهناك تغدينا ورق دوالي وشربنا العصير وكانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف قبل العصر.

كثيرا ما يذهب الناس للرحلات ودوماً تبدو الرحلات قصيرة مهما طالت ثم نعود إلى بيوتنا، وكذلك الحياة رحلةٌ قصيرة ثم نعود إلى دارنا الآخرة... فلنتزوّد لها.

(الثلاثاء 15آذار 2011)

(الموافق 11 ربيع الآخرة 1432 هجرية)

وجه القمر

بدت لي حالة شعب أرض المحشر والمنشر كوجه القمر؛ وذلك أنه حين يكون القمر بدراً يرى كل الناس نفس الصورة الثابتة التي فيه بسبب سجن الزمان والمكان وبسبب حركة الأرض وحركته حول الشمس.

بدت الحالة كذلك لطول انتظارنا ويأسنا من الناس.

لكن ما يبعث الأمل في النفس على أن نرى صورة أخرى لوجه القمر أو وجه بلادنا هو خالق الشمس والقمر والذي أوقف الشمس ليوشع بن نون وقت العصر حتى تمّ له النصر.

وتلك أمورٌ لا يفقهها الماديون؛ أي تغيير نواميس الكون نصرةً للمؤمنين.

إذ من ذا الذي اخرج الناقة من الصخرة الصماء ومن انطق من كان في المهد واوجد عيسى عليه السلام بلا أب وبكلمة كن، ومن أمات الذي مرّ على القرية قرنا وأحياه وأمات أهل الكهف قرونا، ومن علم سليمان عليه السلام منطق الطير، بل من علم من أحضر العرش من اليمن إلى بيت المقدس بلمح البصر؟

إنه هو الله الخالق القادر والفعال لما يريد.

إذاً فنحن متفائلون لأننا نأوي إلى ركن شديد وعلى موعد إن شاء الله مع فرج قريب نرى فيه القمر بصورة مختلفة وذلك لأن الشمس أصبحت في عيوننا.

السّجنُ الخالد

(إهداء إلى كل الأسرى في السجن الصغير والسجن الكبير)

تمرُّ الأيام مرَّ السّحاب، كالجبال... فالأزمنة تمرّ والأمكنة تمرّ والرجال العظماءُ يمرّون، وكذا الأفراح والأتراح.

فمنذ تبادل الأسرى العام ألف وتسعمائة وخمسة وثمانون وتبادل الوفاء للأحرار العام ألفين وأحد عشر مضى أكثر من ربع قرن من الزمن كان كأربعة قرون، وذلك أن المعذّبون يرون الزّمن ثقيلاً بطيئاً بطء سُلحفاةٍ معمرة، بينما الآخرون المنعّمون يرونَ الزمن يَخطفُ نعيمهم وأعمارهم كالبرق.

وفي النهاية كما يبتلع الثقب الأسود كل شيء يبتلعنا جميعاً الزمنُ لمرحلةٍ ذات قوانينَ أُخر وأبعادٍ أُخر. فالزمن هو أكثر ما يبعث على التأمل والتفكر. فكأنه وليدُ الحركة، وكأن الحركةَ وليدةُ كنْ فتوالدت الأحداث إلى ما شاء الله، فحدثت سجونٌ حين كنا في ظهر أبينا آدم عليه السلام حيث أخذ الله سبحانه وتعالى علينا العهد والميثاق بأنه تعالى ربنا، ثم سُجنّا في أرحام أمهاتنا في سجن الأرض لمّا هبطنا إليها، ثمّ سُجنّا في البرزخ، ثم إلى السجنين الخالدين سجنُ الجحيم والعياذ بالله منه، وسجن الجنة ونسأل الله تعالى أن نكون فيه.

فإذا كان القبر أو البرزخُ يطلقُ على من يدخلهُ زائراً فإن سجن الدنيا أو زيارتها كمن جلس يحتسي فنجانَ قهوة.

فكأنه لا عذاب ولا سجن... بل تبقى ذكريات، وكأنه لا دنيا، لأن ما بعدها هو الحياة.

خاطرة تحت فضاء الفكر

بالأمس القريب أو قبل سنين

ضاع مني حجرٌ ثمين

أبيعُ كلّ ما أملك

ولا أستدين

كيما أستردّهُ

فبدونهِ جسدٌ بلا روحٍ أنا

أتأوّهُ عازفاً صمتاً دفيناً على وتر الأنين

كلما تذكرتهُ

ببسمةٍ أُواري لأْوائي

صرتُ جثةً تتجولُ بين الأنامْ

كأنني من وراء العوالم قادمْ

كالغريبْ

لمْ أبحْ بسرّه إلا لنفسي

أنوءُ نحو الكون العجيبْ

حيث المجرة أندورميدا

حيث تعيش الأحلامْ

أناجي هناكَ الواحد العلامْ

وحيداً...

كيما يريني في الأحلامْ

أين أجدُ حجري

ففيهِ

خريطتي... فيهِ ماضيّ

وحاضري ومستقبلي

فيهِ أنا

وفيه للحياةِ عودتي

//////

ضياعُ هذا الحجرْ

فلسفني أدماني

مزّقني أشقاني أبكاني

حكمةٌ ما... سرٌّ ما

وراءَ تلاشيه

//////

نداءٌ يوميٌّ من أعماق أعماقي يناديني

هل سيعود؟ متى يعود؟ هل أجدهُ؟

وبعد طول بحث

قال أحدُ العارفين:

إنه قريبٌ منكَ في ذاكَ الكهفْ

سَرَيْتُ بعد أن هجعتِ العيون

شاهراً سيف العزمْ

ووصلتْ

كانت تحرسُ الكهفَ ساحرةٌ ماكرة

منعتني الدخول

صرعتني بعصاها السحرية

من وراء الجدار

ثم أفقتُ وعدتُ أدراجي

يحدثُ ذلك كلّ ليلة

وكلما ذهبتْ

يحدثُ ذلكَ منذ سنين

سئمتُ... تُهتُ... حِرْتُ... وتساءلتُ

متى ينتهي هذا العناء

أجاب الرجاء:

هنا يكمنُ الشوق

هنا يكمنُ العزاء

فبلا شوقٍ لا معنى للحياة

قلت: وهنا كتبَ القضاءْ

وبلا حجري...

ما أجملَ الفناء!

الدنيا فاتورة

مزّق إسماعيل فاتورة الإنارة بسبب ضغط الدفع الروتيني الرباعي كي يدفع عن رأسه الصُّداعَ مؤقتاً موقناً أنه سيدفعها بالذهاب إلى الشركة، وهي المرة الأولى التي مزّق فيها فاتورة، وسبب نفاد صبره برودة العرب في عدم إرسالهم الدّعم والمال للشعب الغلبان وتلكؤهم وكذبهم وتواطئهم أكثر من ستين سنة خلت ليس في قضية الدعم المالي؛ بل في بقاء حال الشعب الفلسطيني على ما هو عليه وإرهاقه ليستسلم؛ لكن هذا مُحال.

لكن يبدو للمتبحّر في الأمور أن ما يراه الناس شرّاً إنما يحمل في باطنه كل الخير، فالشام مثلاً مدمّرة وتُخرّب من ابن الطاغية السابق، لكنها بخرابها الآن هي تعَمر وفي طريقها إلى الحرية والعدالة وهي تدفع الآن فاتورة العَمارِ بالخراب.

وبالنظر للقضية من زاوية واسعة نرى أن كل الأمور تقريباً لها علاقة مباشرة بدفع فواتير، وكأنّ الدنيا فاتورة. فضريبة الأمن الخوف، وضريبة الفرح الحزن، وضريبة الصحة المرض، وضريبة العشق الفراق، وضريبة المال الزكاة، وضريبة الكفر النار، وضريبة الحياة الموت.

وذلك أنّ هذه الدار الدنيا ليست جنّة، وإنما للابتلاء، أما الذين يسدّدون الفواتير مباشرة فإنهم في أمان في معاملات الدنيا والآخرة. حيث إنّهم يوم الحساب يحاسبون حساباً يسيراً ويدخلون الجنة بسلام.

وملخص القول لما ذُكِر أنّ الإنسان كان في الجنة فإذا أراد العودة إليها فيجب عليه في الدنيا تسديد فاتورتها، وهي القيام بواجباته التي كلفه الله بها؛ وإلا فالعقاب ينتظره.

وداعاً للدكتاتورية

أصبحت الديمقراطية هي الورقة الرابحة الوحيدة للحكام والمحكومين بعد عالم العولمة، فقد رأى الغرب والشرق أن شعوب العالم الإسلامي ذات دين وخلق، وليسوا إرهابيين كما صورهم الأعداء وكما صورهم حكامهم وأصحاب الكراسي والمصالح.

لذا فلا عجب إذا وقفت أمريكا ومن يدور في فلكها إلى جانب الثوار والتظاهرات التي تنتقل من دولة إلى دولة طالما مصالحها بقيت في أمان.

وتبادل المصالح بين الدول شيء روتيني في الماضي والحاضر، ونحن الآن في عصر الحضارة والرقيّ، ويجب أن تكون الحروب والخلافات بين الدول وراء ظهورنا من زمن بعيد.

فالإنسان على كوكب الأرض يجب أن يسعى لإنهاء هذه الخلافات التي وراءها الشر وينظر إلى المعالم السامية والحياة الفاضلة والعلوم الكثيرة المختلفة والتي تحتاج إلى دار سلام للتأمل في ملكوت السماء وليس إلى دار حرب .

وإذا كان ذلك فلنقل حقاً: وداعاً إلى الأبد للحروب والكراهية والدكتاتورية.

ربيع فلسطين

ربيع نيسان الماضي ما زال متشبثاً بأرض فلسطين هذا العام حتى جاء الشتاء فتخدّرتِ الأرضُ بعباءةِ السماء البيضاء الفضفاضة، والتي تهادتْ بِخِفّةِ الفَراشِ، وحبستِ الناسَ في الفِراشِ، ولم يخرج معظمهم حتى بكى الثلجُ، وصار دموعاً في الطرقاتِ وسيولا كيْ يرى الربيعُ الشمسَ.

أما الربيع السياسي الذي بدأ باسم الله مجراهُ من تونس يبدو أنّ مرساهُ سيكون في فلسطين لعلّ الستارة تُسْدلُ على الحروب.

وتُداعبُ شاطئا الدولتين مياهُ البحر الأبيض، وتوجد بينهما قواسم مشتركة، فهما تقعان على نفس خطّ العرض وتتقاربان في المناخ والزراعة، وخاصة أشجار الزيتون الدائمة الخُضرة والبركة، وتشبثِ جذورها في الأرض.

هذا الربيع الأخضر الذي ينتشر في الأرض كان ماؤهُ الدماءَ والظلم الدولي، وكانت غرسته الأولى في فلسطين الذي غرس فيها الإنجليز الشجرةَ الملعونة؛ لذا وبسبب تراكم الظلم منذ الغرسة الأولى التي صارت تنمو وتكبر كان من العدل أن تنمو وتكبر غرسة العدل، وتُزهق

غرسةَ الظلم ليس في فلسطين وحدها بل في كل مكان لأنها غرسةٌ طيبةٌ أصلها ثابت وفرعها في السماء.

وهذه فلسطين الأرض المباركة الطيبة أوقدت من كلّ حرف من حروفها ثورة في تلك الدول التي تنطق بالضاد، وكأن آخر حرف من حروفها أوقد ناراً في ما تنتهي تلك الدول بها بدأت به النار وانتهت به فلسطين.

عسى أن يكون بعد ذلك نصراً ونوراً؛ فسبحان الذي يقول للشيء كن... فيكون.

ما بعد الثورات

ما زال الأسرى في أرض الإسراء ينتظرون اكتمال بدر الثورات على أحرّ من الجمر ليروا الخطوة التالية لما بعد الثورات العربية المباركة، والتي ما تزال تعمل على ترتيب البيت الداخلي وملاحقة الفلول والبعوض ليهدأ أهل البيت ويستريحوا من لسعاتهم حتى نخطو الخطوة التي تتلهّف لها قلوب الملايين من الشعوب العربية والإسلامية على امتداد خريطتنا الواسعة في قلب هذا العالم الواسع، وهي الوحدة، فبها تزداد دولنا قوة وعزّة وكرامة وحضارة.

فما أجمل أن يكون لنا دينارٌ واحدٌ نتداوله بيننا تحت علم واحد، فلغتنا واحدة وقلبنا ينبض بالإسلام، والكفاءاتُ في رجالنا، والخيراتُ مليئة بها أراضينا، والأنهار في بلادنا وفيرة، والنفط ما زال يمنحنا فرصة بذهبه الأسود إلى جانب المعادن الأخرى الكثيرة الدفينة، وعندنا تكافل اقتصادي يغنينا عن التعامل مع الشرق والغرب.

ولّما تكون هذه الوحدة وهذا التكافل، فإن المتطفلين المستعمرين والمُتسترين بقناع الديمقراطية سيبتعدون بلا شك عنّا ويتركوننا وشأننا بعد أن يتركوا خلفهم المائدة الكبيرة بحجم أوطاننا والتي طالما ملأوا

بطونهم منها وآباءهم وأجدادهم؛ ليروا أنّ تلك المائدة التي شبعوا منها ما زالت مباركة كما كانت قبل تَداعيهم عليها.

(الأربعاء 23/ 1/ 2013)

الثورات الثلاث

حينما قسموا أوطاننا في معاهدة (سايكس بيكو) واستعمروا أراضينا وسلبوا ونهبوا واستوطنوا بدأت الثورات حتى تمّ التحرير بدماء الشهداء، ورحل الاستعمار بجيوشه وعتاده.

ثم بدأ يتجلى للشعوب بعد زمن الاستعمار أنّ ولاء حكامهم للمستعمرين وأنّ الاستقلال الشكلي الذي كان كأنه إعادة انتشار خفيّ وذكيّ من المستعمرين، فما برح الظلم والقهر وسجن الشرفاء والذلّ والغلاء والحرمان على أرض الواقع، وقد مزّقت أجساد الشعوب وأرواحهم، وكذلك نهب وسرقة خيرات الأمة، وأنّ الحكام حراسٌ عليها لأسيادهم.

فكانت بداية الثورات العربية عليهم هي التحرّر الثاني من الاستعمار.

ولا تخلو الدول والأمم من المفسدين والخونة والأشرار أتباع الشيطان، وهم أخطر من الاستعمارين السابقيْن.

فما هي الطريقة المثلى للخلاص منهم بأقل خسارة ممكنة حتى ننعم بأوطاننا كباقي البشر؛ ليكون التحرر الثالث والأخير، وحتى نستعيد فرحة العيد التي فقدناها منذ ولادتنا؟

هل هي ثورة من نوع آخر وبلا دماء؟

هل هي ثورة الوحدة بين كل أوطاننا؟

(2013/2/12)

خاطرة في الصحراء

الحياة تبدو كورقة صحراوية صفراء تنقشُ النباتاتُ الصحراويةُ عليها بعيدانها وأشواكها كلماتٍ مبعثرة هنا وهناك؛ تلك الكلمات تحمل في عيدانها الغذاء والدواء فيرعاها القطيع قبل أن تتلاشى في الصحراء المُتغيرة، ثم تكون في كوبٍ أو على مائدة، وكما تحيا الدّوابّ بالأعشاب يحيا بالكلمات الكُتّاب، وبشوكيْهما يُدميان المعتدي، وبدونهما نبدو كالقطيع.

لّما زرتُ الصحراءَ سألتني: من أين قدمتَ؟

أجبتها: من بيتٍ له سبعةُ أبوابٍ وخلفهُ قُبةٌ ذهبيةٌ كبيرةٌ تنظرُ إلى السماء من فوق الكهف.

قالت: عرفتكَ، وأهلاً بك.

صعدتُ بمشقةٍ على تلةِ رملٍ صنعتها الرياحُ حديثاً، ولما وطأتْ قدمايَ تلك الرمال تذكرتُ أولَ من وطأ القمر، فغاصت قدمايَ حيثُ بدوتُ بدونهما أقصر؛ لكنّ التأمل في الصحراء حلقَ بي أبعد؛ فشعرتُ كأني مجرّد نغمة في أوتار الكون ضمنَ البعدِ الرابع.

تساءلتُ: هل الأشياء التي أمامي حقيقةٌ أم خيالٌ وظلالٌ أم رموز؟

وهل الكون كلهُ ملفٌّ مضغوط في حبةِ رمل؟

أثناء تأملي لفت ناظري حادي الجمال؛ فإذا بقوافل تعبر الصحراء يقودها عرب.

سألتُ الصحراء: أين يسيرون بِمتبوعيهم؟ وهل وجوه هؤلاء القادة حقيقيّة أم لكلٍّ وجهان؟

إذا كانوا كذلك فلأنّ متبوعيهم كذلك همستْ بذلك الصحراء في أُذُنَيَّ.

فأجبْتُ: هذا عدلٌ.

وحين أردتُ العودةَ إلى أرض الواقع كان الرمل قد وصل إلى ركبَتيِّ.

الفهرست

الإهداء	5
المقدمة	7
لا تحتاري (القدس)	9
النرجسة	10
إلى صديق	11
أيام الحصاد	12
السفر إلى البعيد	14
الغراب يرد على الحصار	16
ترانيم السحر	18
شاي في الجزيرة	19
إجازة في الصيف	20
الجاذبية	22
نسيم في ليل تموز	24
مسلسل الحياة	26
جزيرة الشمس	27

رمضان	28
الضيف الكريم	29
بطاقة معايدة على سامي	31
عيد جميل	33
خاطرة من بقايا الذكريات	35
ليلة القدر	36
عمان	37
ضباب الخريف	39
العزف لوحة الغروب	41
إلى شقيقتي	42
أيها الغريق	43
حاول أن تبتسم	45
شاطئ الحياة	47
خريطة الطريق المعلقة	49
نافذة على الحديقة	50
الثقوب السوداء	52
قلبي وصمت العرب	53
مرحباً بالرباط وأهلها	54

الكتابة بالشموع	55
الإنسان هذا السر	58
نداء الماضي	59
عصفور ونرجس وشتاء	61
ربيع آذار	63
اختر الإجابة الصحيحة	64
الغلاء والتغيير	66
ذكريات لا تنسى	68
تأملات فيما بعد الرحلة	70
الدب الكسلان	72
طريق الشمس	73
خاطرة في السراب	77
رسومات على جدران غرفة قديمة	78
الرؤيا	80
عودة العيد	82
فئران تهاجم المدارس	84
قطرات الندى	86
حواجز بين الجبلين	87

حينما يبكي الرجال	89
حورية البحر	90
بداية تأثير رياح التغيير	92
قالت وقلت	94
يحكى أن...	97
النرجس	99
تعدد العوالم	101
نجم الشرق	103
يوم من أيام بدر	105
خام الثورة	108
حكام من ورق	110
ثورة الشتاء بلا سيف	112
سواك العدل	113
رحلة مدرسية إلى القرى المهجرة	115
وجه القمر	118
السجن الخالد	120
خاطرة تحت فضاء الفكر	122
الدنيا فاتورة	126

وداعاً للدكتاتورية	128
ربيع فلسطين	129
ما بعد الثورات	131
الثورات الثلاث	133
خاطرة في الصحراء	135